صراع

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: صراع

اسم المؤلف: د.السيد النحراوي

التدقيق اللغوي: خلود أحمد

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢١٠٥٣ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٢٩٣-٣-٠

مسار للنشر و التوزيع

Massar publishing & Distribution

ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

01020439639

massar.pub1@gmail.com

صراع

د. السيد النحراوي

مسار
للنشر والتوزيع
Massar publishing & Distribution

إهداء

إلى كل من تمسك بالحق ولو كانت نظـرة..

ولم يستصغـر في الله جهده ولو كانت كلمـة؛

فَلَرُبَّ كلمة أحيت أمة.

(١)

وقف محمد في ذلك المكان الواسع الذي تعود أن يزوره كلما أحب أن يختلي بنفسه، ثم نادى بأعلى صوته: سأنتصر، لابد بأن أنتصر، لابد بأن أكون أنا السيد؛ سيد نفسي، مالك أمري، مُحرك ذاتي.

- ستواجهني الصعاب ؟ ما من مشكلة، إنها صانعة الرجال.

- ستعرقلني القيود؟ ما ضرني قيد نال من جسدي، وتعافت من آثاره روحي.

- ستوقفني خطوب الزمن؟ أعرف أن أصعب الجهاد جهاد السنين.

- سأتعب؟ إن الراحة عندي هي قمة التعب.

ينادي ولا أحدٌ يسمعه، يهتف ولا بشر معه، وكأنه يريد أن يُسمع نفسه صوتُها، وأن يأخذ العهد على ظاهره ألا يحيد عما بات مستقرا في باطنه.

الجو من حوله سكون إلا من أصوات لبعض الطيور. مظلم إلا من ضوء شارد لمصباح يفض نوره على استحياء فوق قبة الشيخ وسط المقابر التي تعود محمد أن يزورها في هذه الساعة المتأخرة من النهار قرب رواح الشمس، كلما أصابته الحياة بضجيجها وأحب أن يستلهم منها رروح

والده وكلماته. لم يكن يخشى الظلمة، أو يخاف الأشباح. تعلم أن يواجه هواجس الخوف بداخله، وأن يقتل الوهن الذي يراوده.

إنه شاب بلغ من عمره الثالثة والعشرين، قُتل أبوه أمام عينيه وهو في سن الإدراك، وما زالت صورته تلوح لعينيه، ولا تترك ذهنه أو تفارق مخيلته، وما زال الدم الأحمر القاني يسيل من رأسه بعد أن شجها أحد أولئك الأوغاد الذين يدَّعون الفضيلة وهم فسقة، يتصنعون الصلاح وهم فسدة. إنهم أبعد الناس طريقه عنه، وأغلظهم شعورا عن الامتزاج به، وأجهلهم عن التمسك بتعاليمه.

مات والده لأنه تمسك بكلمته ودافع عن قضيته كأحد رجال العلم الصادقين. ماذا كان يضيرهم لو أنهم سمعوا كلامه، وأخذوا برأيه! قال لهم: إن أكل الربا حرام؛ وإن المتاجرة بأموال اليتامي ظلم، وإن سلب حقوق الفقراء محاربة لله ولرسوله، وإن التفاوت الكبير في الحقوق نفي للعدالة

لم تتسع أنفسهم للحوار، ولم تنفسح صدورهم لمخالفيهم الرأي، فأضمروا في أنفسهم شرا بقتله والتخلص منه حتى يحلو لهم الأمر، ويصفو لهم الجو.

لقد كان هو العقبة الأولى في طريق تجارتهم، والسد المنيع أمام ثرائهم وثروتهم. الناس تحبه، والجماهير من خلفه تطيع أمره، والنقود في خزائهم تتناقص شيئا فشيئا.

كانت قضية الفقراء وتعليم الناس أمر الدين هي قضيته، كان يود

لو أن كل واحد منهم وجد ما يسد جوعته، ويواري سوأته، ويسْلَم له دينه.

كان الإقطاع وأصحابه يملكون كل شيء ولا يملك غيرهم شيء؛ فاجتمع عليهم سوأتان: الجهل وحب التملك. واجتمع على الناس مرضان: الفقر والخوف.

تسائلوا: ما الحيلة إذن؟

- لابد من قتله والتخلص منه.

اجتمعوا عليه في الخفاء، قتلوه وهو خارج من صلاة الفجر، ضربوه على رأسه، فسالت الدماء منها ولم يجد منقذا.. فمات.

أخذ ينادي بأعلى صوته: أبي: ما هذه الدماء التي تسيل من رأسك؟

- إنها الجهالة يا ولدي.

- من هؤلاء.. قل لي؟

إنهم أعداء النجاح، قُطَّاع طريق الهدى، إنهم من أظلمت قلوبهم عن البصر بالحق واتباع سبيل الرشد.

- لمن ستتركني ؟

- لمن علمني.

- إذن هو الموت يا أبي!

- لا، بل هي الحياة يا بني!

- ماذا سأفعل من بعدك؟

- فارق نفسك يحصل لك مقصودك.. إن قدرت.

رحل الأب، وما زال الولد يذكر شكله، ويحفظ كلماته. لم يستطع أن يفسر الكثير منها، لكنها مكتوبة في الذهن، محفورة في صفحة الفؤاد. كم وقف كثيرا عند حدود معانيها؛ لكنه لم يعرف ما معنى هذه المقولة خاصة: (فارق نفسك يحصل لك مقصودك). كان عليه أن يفكر، كان عليه أن يعتمد على نفسه في فهم معانيها، وإدراك كنهها. حتى أمه لم تستطع التفسير، قالت له حين سألها عن معناها: كان أبوك يا ولدي بحرا من الرموز، قلما تفسره كلمات، إنها المعاني.

- إذن ماذا أفعل كي أفهم كلماته؟

- أخاف عليك أن تفعل فعله فتصيبك نهايته!

- وماذا كان يفعل؟

- كان كثير الاختلاء بنفسه، والتفكير في ذاته. دائم الصمت، كثير القراءة. مشغول بهموم الناس. كانت الخلوة أحب إليه من مرافقة الناس، لذا أحبه الناس والتفوا حوله وأطاعوه.

تركت كلماتها في نفسه أسئلة كثيرة لا إجابة لها ولا حل. لكنه عرف منها شيء واحد فقط: عرف من أين يبدأ طريقه، إنها نقطة واحدة للبدء لا شيء غيرها " أن يعرف نفسه فيملكها، فإذا ملكها أعتقها، ويوشك

من أعتق نفسه أن يعتق نفوس من حوله ". إنها معرفة النفس ثم السيادة عليها، السمو بالذات والانتصار على شهواتها، هكذا اختار لنفسه.

وقف ينادي بأعلى صوته، ولا أحد حوله: لابد وأن أعرف السر، سر القوة، سر التأهب، سر التحفز، سر الإرادة.

.. وسأنتصر.

(٢)

عاد محمد متأخرا هذه الليلة، فتح الباب بخفة، ثم تحرك على أطراف أصابعه حتى لا يوقظ من في البيت ظنا منه أنهم نائمون. فتح الباب، فإذا بوالدته تجلس قبالته وأثر الدمع في عينيها والحزن الداكن يخيم على وجهها:

- لماذا تأخرت الليلة يا محمد ؟

- انت عارفة إن الشغل في الورشة كثير يا أمي.

- أمررت على المقابر ثانية ؟ ألم أحذرك من الذهاب إلى هناك خاصة في الليل.

تلعثم صوته وتلجلج:

- أمي.. ولكن !

- ولكن ماذا.. أخشى عليك من أن يصيبك مكروه، أو أن يلم بك سوء، أو أن يحدث لك مثلما حدث لأبيك من قبل.

- أرجوك لا تخافي يا أمي.. كل شيء سيكون على ما يرام، وأنت تعرفين أنني لا أشعر بالراحة إلا في هذا المكان الذي يذكرني بنفسي وبوالدي، ويساعدني على التفكر والتأمل.. أتستكثرين بعض السعادة

عليّ يا أمي؟

- إن كانت السعادة لا تأتيك إلا في هذا المكان فأنت مجنون!

- كثير ما يكون العاقل مجنون في نظر الناس.

- أنت عنيد لا تستجيب.

- من شابه أباه فما ظلم.

- ولكن !

- انظري، تعالي.. خمني ماذا أحضرت لك:

طبق هريسة بالقشطة من اللي انت بتحبيه، بس إيه تكلي صوابعك وراها، دوقي حته كده، دوقي، فين أمينة، هي نامت؟ ح صحيها، نوم إية وابتاع إيه. أمينة.. أمينة.

- أيوة اضحك علي بالكلمتين بتوعك دول، انت فاكر لم تطعم بقي حينسى عقلي؟

- يا ستي نطعم بقك الليلة، ويفكر عقلك الليلة الجاية.

- آه منك انت آه.

دخلت أمينة.. لم تكن نامت بعد فهي الأخرى قلقة علي أخيها. سمعت الحوار من أوله إلى آخره لكنها لا تعرف كيف تشترك في مثل هذه الحوارات، وإلي أي جانب تقف.. كان كل دورها المتابعة والاستماع.

إنها طالبة في المرحلة الثانوية، متفوقة في دراستها، خفيفة الدم، كثيرة الدعابة ورغم خفة دمها وكثرة دعابتها إلا إن ذلك لم يقلل من أمر حيائها شيئ.

كانت جميلة، زادها الحياء هيْبة، فاجتمع لها مع الجمال الوقار، فصارت مضربا للمثل رغم صغر سنها.

جلست أمينة، أخذ محمد يوزع عليهما مما أحضر:

– ايه يا ست العرايس نايمة بدري لية الليلة، مفيش مذاكرة ولا إيه؟

– خلصت مذاكرة من زمان.

– ما شاء الله، ما شاء الله، طيب يا ستي ودرستوا إيه النهاردة؟

– درسنا في علم نفس: " نظريات تفسير السلوك البشري ".

– كفايانا نظريات وصراعات واختلافات، فقد تأزم الموقف.

– بتقول إيه يا محمد؟

– متشغليش بالك، باين عليها تخاريف قبل النوم، ولا تلاقيها أحلام اليقظة.

– طيب سيبَك م الأحلام، وقوم نام أحسن.

– أنت تخافين عليّ من الأحلام، وأمك تخشى عليّ من الأشباح والأوهام، وأخشى علي نفسي الزهو والفتنة فمتى نأمن ولا نخاف؟

– كُلْ يا بني وسيبك م الهوس اللي انت فيه ده.

- إيه الكلام الحلو ده يا ست الكل، شهد مكرر، عسل؟ لأ، دا أكيد هريسة!

- طبعا مش بآكل هريسة.

ابتسموا جميعا لكلماته في سرور، ثم عادوا يواصلون الأكل في مرح.

- لا تنسي أن تحضري لي كتاب علم النفس قبل أن تنامي؛ محمد يخاطب أمينة.

- حاضر مش حنسى.

لم يكن محمد قد أكمل دراسته بعد، فقد تسرب بعد الإعدادية حيث تعذر على أمه دفع المصاريف بعد وفاه والده، كانت بحاجة لمن يعمل من أجل القوت. لكن حلم الدراسة لم يفارق خياله، ومع أنه ترك المدرسة إلا أنه ما زال شغوفا بالعلم، حريصا على القراءة، يعشق القلم. قرأ كل كُتب والده التي خلفها، واستوعبها، ودَوَّن ملاحظاته عليها.

لم تكن أمه تعلم عن قراءته لكتب والده، كانت تخشى عليه منها، كانت تحسبها السبب فيما حدث له، لكنه كان يغافلها ويسهر عليها قراءة، حيث كانت مكتبه والده في خزانه الحجرة التي ينام فيها.

كانت تجذبه الصفحات المسطورة حال البحث، والصفحات البيضاء حال التأمل، ومن شدة حبه للقراءة كان يلتهم كتب أخته التهاما، يهضم ما فيها ثم يشرحها لها في سهولة ويسر. ولكم تردد محمد في العمل الذي وُكِّل إليه بعد وفاه والده، حيث عَرض عليه أحد المقربين لوالده أن

يعمل بالإعدادية في أي عمل كتابي غير مرهق له؛ لكنه رفض. فضل (النِجَارة) عليها، لأنها تُشبع فيه حب الابتكار والخَلْق، وصنع الجديد، إضافة أنها كانت مهنة معظم أهله فلا يجب أن يتركها، لذا فضَّل أن لا تنقطع المهنة به، وأن لا يقف حب العلم والشهادة مانعا من تحقيق ما يحب.

- إيه أخبار الشغل يا محمد يا بني ؟

- عال والحمد لله، طالما فيه عرايس وعرسان، ح يكون فيه أوض نوم وصالون، وطالما فيه (نوم) يبقى الشغل حيفضل (صاحي).

- وامتى ياسيدى ناوي تنام في العسل زي اللي ناموا، ولا حتفضل كده صاحي؟

لما عروستنا الحلوة الأمورة تنام الأول ويّا عريس الهنا، ساعتها تفرج.

- انت بتقولوا إيه يامة، أنا مش فاهمة حاجة!

- بكره تفهمي كل حاجة.

- ولحد بكرة ما يجي، قومي هاتي كتاب علم النفس.

قامت أمينة، أحضرت الكتاب، قبَّل كل واحد منهما يد أمه ثم دخل كل واحد حجرته.استلقى محمد على ظهره، أخذ يطالع صفحات الكتاب في شغف، فتح صفحة.. قرأها، فتح الثانية، فإذا صورة والده، أخذ يحدق فيها، فإذا صورة المقابر، أخذ ينصت بإصغاء، فإذا صوته

حال المناجاة، أخذ يدقق ويطيل النظر مع التلقي، فإذا صوت والده يأتيه من بعيد: " فارق نفسك يحصل لك مقصودك ".

(٣)

استيقظ محمد من نومه كعادته مبكرا، كان يحب أن يُصحح جسده بالنسيم العليل حين الصباح، وأن يُصفِّي عقله بمنظر الخضرة وقد بللها قطر الندى، وأن تتأهب نفسه وتتحفز برؤية خيوط النور وهي تنبثق من قلب الظلام. كانت تشعره هذه المعركة بين النور والظلام في الكون، بهذه المعركة التي تشتعل بداخله بين الجمال والقبح، وبين السمو والرذيلة، وكانت تذكره بتلك المعركة في أرض الواقع بين العدل والطغيان والتي راح ضحيتها والده، فالمعركة هي هي وإن تغيِّرت شخوصها، وتباينت ساحة القتال فيها.

لكنه كان يصر مع كل إشراقة شمس، على أن لا يكون هو الخاسر أبدا فيها، والخسارة في رأيه أن ينتقل من الضد إلى نقيضه فتلك هي الهاوية!

.. كان محمد خفيف النوم؛ قليل النوم يكفيه ويستريح به جسده، كان يرى النوم مضيعةً للوقت، وإهدارا للعقل، ومانعا من متعة التفكير.

خرج من منزله.. دخل الورشة.. كان أول الدخول فيها. كانت هذه اللحظات المبكرة هي اللحظات الوحيدة التي ينعم بها وحده في الورشة، يصمم ويبتكر ويصنع الجديد من قطع الخشب الصغيرة

المتناثرة التي ليس لها قيمة، وما زال يحتفظ بذلك التمثال الرائع الذي صممه بنفسه، ذلك التمثال الغريب لفارس قوي، مفتول العضلات، شامخ الرأس، يحمل في إحدى يديه سيف لامع، ويمسك بالأخرى لجام فرسه الذي غاصت قوائمه في الطين، وقريب منه على نفس القطعة من الخشب أناس يحملون سيوفهم وهم في حالة اقتراب منه، يحيطون به من كل جانب يريدون الفتك به، والقضاء عليه. لم يعرف محمد ما الدافع الذي جعله يرسم هذه اللوحة، ولا الخاطر الذِي دفعه لذلك، ولم يعرف أيضا لم سماها " معركة الفارس النائم "، ولَكِنْ سأل نفسه، وراح يخمن السبب: هل هذا الفارس النائم أنا؟ ولماذا غاصت قوائم فرسي في الطين؟ ومن هؤلاء المحيطون بي يريدون قتلي؟ ثم السؤال الأهم: ما السبب النفسي وراء رسم اللوحة؟ ولماذا لا تستطيع نفسه تفسير ما أنتجت نفسه؟ أليس غريبا أن لا أستطيع تفسير ما أنتجت نفسي؟ أليس هذا وحده مدعاة لأن أبحر فيها لأعلم بعضا من أسرارها التي خفيت؟ أليس أبي كان محقا حين قال: " فارق نفسك..".

إن هذه اللوحة تمثل لمحمد الشيء الكبير، كان دائم التفكير فيها، يخرجها من مخبئها كل يوم للفُرجة ثم يخفيها عن الأنظار، وبينما هو كذلك على حالته من التأمل دخل عليه أحدهم:

- سلامو عليكم يا معلم محمد.

- وعليكم السلام يا سي برهومة، وقَّعت قلبي، مش تقول احم ولا دستور.

– انت خايف لحسن نشوف الكنز بتاعك؟ يا سيدي انت والكنز بتاعك ف حالك واحنا ف حالنا.

– كنز إيه ما انت عارف الفولة.

– أيوا يا عبقري عارف إنك فنان، وأنا كمان فنان، بالأمارة شفت حتة فن امبارح، إنما ايه مزيكا، يا سلام يا سيدي ع الرقص البلدي، خليك في البلدي تستاهل خيره، مش الكلام الفاضي اللي بيقولو عليه باليه. التليفزيون بقى ذوقه وحش قوي اليومين دول يا محمد.

– علشان كده اتأخرت النهاردة، انت حظك بمب، دا المعلم لو شافك، كان صبَّحك بجوز اقلام على قفاك انما إيه مزيكا.

– أعمل إيه بس ياحمام معرفش مسهرش، السهر حاجة في دمي، وأهل الفن ميحلاش كلامهم إلا بالليل.

– آهو انت كده، تسهر وتنام، وتنام وتسهر، لحد ما يجي يوم لا عمرك يساوي حبة سهر، ولا سهرك فيه من النوم غير النوم، بس النوم ساعتها ع التراب يا حلو!

– أيوة.. أيوة.. احنا بدينا الفلسفة، استنا لما امسك المنشار، ولا الأزميل وأمزِّك في الشغل المتأخر، مع كلامك المسمسم ده.

– لا يا سيدي، لا تمزِّك، ولا أنا راح أتكلم، يلا بينا نشتغل أحسن.

– صباح الخير يا ولاد.

– صباح الخير يا معلم.

– صباح الخير يابو وش سمح، ازيك يا محمدين. وانت يا بيه جيت النهاردة الساعة كام؟.. اللي رحمك مني إني اتأخرت النهاردة. هو جه امتى يا محمد؟

– لا يا معلم بدري خالص، هو حرم م المرة اللي فاتت.

– دا مخه تخين يا شيخ، بقاله سبع سنين في الورشة ولسة متعلمش.

– تعلمت والله يا معلِّم.

– فين يا سيدي اللي تعلمته.

– تحت السواهي دواهي، انت عايزه يكشف كل ورقه كده مره واحدة.

– محلاك انت يا محمد.. تلت سنين وشربت الصنعة تمام.

– كله من كرمك وفضلك يا معلم، بس خير يا معلم، انت اتأخرت ليه النهاردة قلقنا عليك!

– والله يا محمد شفت كابوس امبارح إنما مزعج، غاب يجيلي تلت مرات، ومعرفتش أبدا أنام منه.

– طالما جالك تلت مرات واتكرر بصيغته، يبقى احتمال يكون حلم أو رؤيا مش كابوس.

– وانت عرفت منين الكلام ده ؟

– انت ناسي إن والدي الله يرحمه، كان بيعرف يفسر أحلام.

– رحمة الله عليه، كان نوارة الداير وسِيد الناحية والجيره، كان راجل كُباره، كل الناس كانت بتحبه حب غير عادى، الراجل ده لا شفت ولا حشوف زيه.. منهم لله بقى ولاد الحرام، هو لولا والدك كنت قبلت أشغلك هنا، دول حتى كانوا رافضين أشغلك معايا !

– مين دول يا معلم؟

– هه هه.. لا، متشغلش بالك، خلينا في الحلم أحسن، انت قلت إن والدك كان بيفسر أحلام؛ متعرفش تفسر لي الحلم ده، يا واد يا محمد؟

– والله أجرب، قول يا معلم.

– شفت يا سيدي اللهم اجعله خير: أنِّي على قمة جبل وكأن رأسي تلامس السحاب، ومن تحت هذا الجبل وعلى إحدى هضابه، رأيت اثنين في مكان مظلم، ثم خرجا إلى النور، ثم نادا عليّ : يا معلم حمودة.. تعالى يا راجل، انت سبتنا وسبقت ليه، انزل هنا معانا. سمعتهما مرات عديدة ولم أستجب، ثم خطر لي أن أنزل إليهما ثم أصعد ثانية كما كنت، ففعلتُ فلما نزلت جراني إلى الظلام، ثم أخذ واحدٌ منهما بعمامتي وطرحها أرضا، ونزع الآخر ثوبي وتركه في الطين، ثم تركانى ورحلا. حاولت أن أتسلق الجبل ثانية كي أصعد، إلا أن قدمي تعثرت فالتوت تحتي، وما زلت أحس لها ألما ولم أستطع الصعود. والشيء الغريب جدا أني استيقظت من نومي وأنا أردد هذه الكلمات: " مش أنا السبب والله.. دول هما اللي قتلوا الشيخ حسن، دول هما اللي قتلوا الشيخ حسن "،

ومن ساعتها ولم أستطع الحركة، إلا هذه اللحظة التي جئت فيها إليكم.

- أخبرني يا معلم بصراحة: هل تعرف هذين الرجلين الذين نادا عليك؟

- نعم أعرفهما جيدا، انهما من القرية، انهما...

- لا تخبرني باسميهما، فلا أريد أن أعرف، لكن قل لي: هل رأيت هذا الحلم ثلاثة كما هو؟

- نعم ثلاث مرات.

- كل ما أستطيع قوله في هذا الحلم بأنك يجب أن تحذر هذين الرجلين، فهما يضمران لك شرا ويخفيان حقدا.

- ومن أين لك بهذا؟

- والله يا معلم: أنا أرى أن العمامة في الحلم هي الرأس. وأما الثوب فهو الشرف. ونرع العمامة هو خلع الرأس ولا يكون إلا بالقتل. وإلقاء الثوب هو نزع الشرف. وتلك كبيرتان، أما الظلام في الحُلم فهو الظلم، وهذه ثالثة الأثافي كما يقولون، وما اجتمعت الثلاثة - في المنام - إلا كان شرا أو نذيرا بشر.

- ولكن ما هو السحاب وما قمة الجبل؟ وكيف تفسر كلامي الذي قلت؟ وما علاقة والدك بالمنام من أصله، إنه شيء محير!

- السحاب هو الرحمة، وأما قمة الجبل فهو الصلاح، والنزول منه

إلى إحدى هضابه ومحاولة الصعود إليه هو دَخَنٌ يصيب هذا الصلاح ويشوبه، فيخرج منه حتى يزيل الدخن عنه، لكن أبشر فإن في التواء القدم لا كسرها دليل على عودة الكَّره والرجوع إلى القمة. لكن الذي يحيرني في هذا المنام هو رؤيتك لوالدي، وذكرك له ومحاولة تبريرك بعدم قتله، هذا الذي يحيرني في كل هذا الأمر، لكن ع العموم يا معلم لا تقلق أو تخاف، فهذا الحلم خير إن شاء الله فبدايته سحاب وقمم وهضاب، ونهايته وإن كانت التواء بالقدم.. سهلة.. جَذع بسيط وتبقى عال.

تَسمَّر المعلم في مكانه لا يستطيع حراكا، وبدت علامات الفزع والقلق في عينيه، ونظر إلى محمد نظرة غريبة لم يستطع محمد تفسيرها: أهي نظرة من قبيل التحديق والدهشة؟ أم أنها نظرة الظنون والريبة ؟ أم ... ؟

وراح المعلم يسأل نفسه في دهشة: هل حقا يضمر أصدقائي لي السوء؟.. لا مش معقول! إننا أصدقاء عمر مضى، إنها الطفولة والشباب والكهولة.. أبعد ذلك يحدث منهما ما يحدث؟! مستحيل، الواد محمد أكيد ما بيعرفش يفسر.. أيوة ده كلام عيال.. أنا إيه اللي خلاني أحكيله بس ع الحلم؟!

نظر محمد إليه على حالته تلك، ثم راح يعاتب نفسه: لماذا فسرت له الحلم؟ ما كان ينبغي أن أحدثه به، كان الأوْلى أن أصمت ولا أنطق، إنني خالفت قواعد التفسير بأن أنذرته ولم أبشره، كانت البشارة أولى من النِذارة، ومن أدراك بصحة ما فسرت؟ هل اطلعت على الغيب؟

قد لا يكون صحيحا بالمرة، هكذا أنت متسرع دوما في كل أمورك غير متريث.. متى تنضبط متى؟

وبينما كل واحد منهما على حالته تلك، إذ دخل عليهما المعلم زعتر:

– إيه الأخبار يا معلم حمودة، خلصت الأودة ولا لسة؟

– أهلا معلم زعتر.. ازيك يا راجل.

– أنا عارف إن معادنا بعد بكره، أنا بس جيت أطمئن بنفسي قبل المعاد.

– تنور يا سيدي، والأودة تستلمها بكره.

– أيوا كده يا معلم.. الراجل المظبوط في المكان المظبوط.

– لا يا فالح فرقت خشبة، المعلم المظبوط في الورشة المظبوط ها ها..ها ها.. هاها.

– هات الشاى يا ولد.

– لا يا معلم.. أنا مش فاضي، آخد شايي بكره مع العفش.

– لا، اسمع يالعفش يالفرش! عايز مين فيهم؟

– هو العفش ينفع الإ بالفرش.!

– خلاص يا سيدي خد فرشتك النهاردة، وعفشتك بكره.

– خلاص يا معلمة.. نشرب الشاي ولا تزعل.

أحضر برهومة الشاي.. شرباه سويا.. ثم انصرف المعلم زعتر، ورجع المعلم إلى مكانه بعد أن قام بتوصيله إلى الباب. جلس بُرهه ثم قام يتجول في ورشته الكبيرة يتابع العمل، ويستحث الهمم ويستنهض الجهد لإنهاء التشاطيب الباقية في شغل المعلم زعتر.

استمرت الورشة في العمل الدءوب حتى السابعة مساء دون راحة تذكر، ثم قفل المعلم حمودة راجعا إلى بيته، وانفض الجمع وبقي في الورشة اثنان: برهومة ومحمد.

- برهومة: دا كان يوم صعب بشكل.

- محمد: يوم تاريخي م البداية للنهاية.

- كله ألا البداية.. كانت بداية طين.

- ليه يا راجل حرام عليك!

- حرام عليَّ أنا.. دا انت عكرت ع المعلم يومه ودُنْيته وحياته كلها.

- اشمعنى؟

- انت نسيت الحلم يا سيدي.

- الحلم..آه كنت ناسي، لكن تعرف، المعلم عينه ما نزلتش من عليّ النهارده مش عارف ليه؟!

- طبعا له حق.. فيه واحد يقول لواحد انت حتموت.

- أنا قلت كده؟

– مش بتقله راسك حتطير، والعمامة طارت، عمامة إيه وراس إيه، يا شيخ يخرب دماغك، انت إيه؟

– تعرف إن أنا كنت مغفل بشكل.

– وحمار كمان.

– وبعدين بقى، متلبخش.

– لموآخذة يا عم لفندي، نسيت انك متعلم وانا الحمار، لكن أعمل إيه كان نفسي أخش مدرسة واتعلم زيك،ع العموم يلا، الواحد لما يبقى مِعَلِّم كبير أحسن له من المُعَلِّم الكبير.

– فكرتني يا شيخ! أنا في دماغي فكرة عايز أقولك عليها بخصوص الموضوع ده.

– بخصوص إيه بالضبط (المُعَلم) ولا (المِعَلِّم)؟

– الاثنين معا.

– فهمني طيب.

– لا مش دلوقت.. بعدين أقولك، الوقت اتأخر الليلة وأنا وعدت أمي أن لا أتأخر.

– يعني مش حتشوف حبيبَك الليلة بتوع التُّرب والأموات، وسيدنا الشيخ؟

– لا مش الليلة.

- امتى طيب؟

- بعد بكره، بعد الجمعة نتمشى سواع الترعة ونتكلم.

- طيب سلام يا صحبي.

- لا يا حلو اقفل انت الدكانة النهاردة علشان أنا اتأخرت.

- خلاص نقفل الدكانة.. افتكر الجمايل دى.

- كلك نظر يا عسل.

انصرف محمد قافلا إلى البيت، تاركا ابراهيم ليغلق الورشة، وقد أرخى الليل سدوله، وخيم بظلاله على المكان، إلا من بعض خيوط النور يبثها ذلك الهلال الذي تولد منذ قليل.

.. انصرف محمد وما زال يفكر في حلم اليوم، ويتساءل في نفسه:

ترى ما علاقة والدي بهذا الحلم، وما دخل المعلم حمودة في هذا الأمر!!

(٤)

أيها الناس: اسمعوا وعوا، فما زلتُ أكرر وأنبه، وما زلتُ أقولُ ولن أملّ: إن المال فتنة هذه الأمة كما قال رسولها صلى الله عليه وسلم، فطوبى لمن وقاه الله شر المال، وطوبى لمن منعه الله شر نفسه بكنزه وحبه والتعلق به.

أيها المسلمون: ليُخْرِج كل واحد منا زكاه ماله، فالزكاة طهور المال، وعصمة لصاحبه، وطُعْمَه للفقير وشفاء لصدره.

أيها المسلمون: لا تحاسدوا فما يزال الحسد بصاحبه حتى يدفعه للكراهية ويجره للقتل، وكم من حوادث عايشناها قُتل فيها أحب الناس إلينا لحقدٍ في الصدور، وغِل تمكن من القلوب، وكراهية سيطرت على المشاعر، كان سببها هذا الذي في أيديكم تسمونه المال. أيها الناس: أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله".

بهذه الكلمات أنهى الشيخ سعيد خطبته في المسجد الكبير، الذي يتسع لمعظم أفراد القرية.

والشيخ سعيد رجل تخرج في الأزهر وحصل على شهادة العالمية، وكان رفيقا للمرحوم الشيخ حسن وزميلا له. درسا سويا حيث كانا في سنة واحدة وحجرة واحدة؛ إلا أن الشيخ حسن أنهى دراسته بتفوق

وعين قبله في مسجد القرية الوحيد آن ذاك، وبقى هو سنتان بعده، أنهى خلالهما الدراسة ثم جاءه تعيينه في أحد مراكز الصعيد لمدة خمس سنوات، أمضاها متنقلا بين مساجده ثم تم نقله بعد ذلك بصعوبة بالغة إلى إحدى مساجد القرى المجاورة بمساعدة من الشيخ حسن[1] ثم نقل أخيرا إلى المسجد الكبير بالقرية، بعد وفاه الشيخ حسن خطيبه المعتمد لسنوات.

وهو رجل ضخم الجثة، ممتلئ الوجه، أبيض البشرة، كث اللحية، أبيض الشعر يبدوا بياض شعره من تحت عمامته، طويلا به حنْيَة بسيطة. عينيه وهو يتحدث تمتلآن بالدموع وإن لم يستدع موضوع الحديث ذلك. لم ترتبط الناس بالشيخ سعيد مثلما ارتبطت بالشيخ "حسن" من قبله، فقد كان ضعيف الشخصية في نظر بعضهم؛ إذ لم يكن ليشارك الناس ولا يخالطهم ولا يواجه المحتكرين أو المنحرفين منهم، كان مبدأه في الدعوة: " قل الحق وامشي، فمن رغب في الحق اقتنع به وانتفع، ومن لم يرغب فيه امتنع عنه ورجع ". وهو في هذا يستلهم قول الله تبارك وتعالى: " وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. ". ولكم عرَّضته سلبيته هذه إلى أقاويل المغرضين وشائعاتهم. كل ذلك وهو صامت لا يرد.

.. اختتم الشيخ خطبته ثم أمهم في صلاة الجمعة، وبعد أن سلَّم، مد كل واحد من المصلين يده يسلم على مجاوريه. ومنهم من جلس يختتم صلاته، ومنهم من قام يصلي السنة البعدية، ومنهم من انصرف.

اختتم محمد صلاته، ثم قام يصلي السنة، ثم هَمّ بالانصراف، وإذ بالشيخ سعيد مادا يده يسلم عليه:

- يا مرحبا يا محمد يا بني. كيف حالك يا بُني؟

- الحمد لله، جزاك الله خيرا يا مولانا، بارك الله لنا فيك، كانت خطبة شافية.

- الله يرحمه والدك هو فيه حد يخطب زيه.. ده كان أستاذنا كلنا.

- اتفضل يا مولانا (وهو يشير إليه بالخروج من باب المسجد).

- انت ع اليمين يا محمد.

- لا يا مولانا،" كَبِّر فكَبِّر "؛ ورد البدء بالأكبر وورد البدء بالتيامن، ورد هذا، وورد ذاك، وأنت الأكبر سنا، والأعلى مقاما.

- ما شاء الله ما شاء الله، أبناء المشايخ كرامٌ حقا من شابه أباه فما ظلم.

خرج الشيخ سعيد ومن خلفه محمد، ثم ودع كلاهما الآخر.

أخذ محمد يسرح بنظره في جموع الواقفين خارج المسجد عله يجد صاحبه برهومة، ولم يكن من الصعب عليه أن يحدد مكانه فضحكاته تُخبر عنه.

كان إبراهيم واقفا في زاوية مع بعض شباب القرية تتقافز ضحكاته، وهم معه يتضاحكون.

أقبل محمد يمشي نحوهم.

برهومة: آهو عم الشيخ محمد جاى آهه، إيه يا سيدنا كنت بتصلي التراويح ولا إيه؟

محمد: آهو احنا كده، مبنخدش منك غير كلام وخلاص، وساعة الجد..! أقول ساعة الجد إيه اللي بيحصل!

برهومة : بلاش بالله عليك.. عيب الرجالة واقفين، بلاش فضايح.

محمد: أنسيْتنا السلام يا رجل.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا رجالة.

المجموعة: وعليكم السلام ورحمة الله يا ابو حميد.

١ - إيه رأيك في خطبة الجمعة النهاردة يا معلم محمد؟

٢ - دي كانت خطبة تمام.. الله يكرمه الشيخ سعيد.

٣ - آهو كلام ابن عم حديت، هوا فيه حد بيحاسب ع الكلام،خليه يقول.

٤ - أيوا ياخي دا حتى الناس قلوبها ماتت؛ لا كلام نافع ولا حتي فعل.

٥ - دا راجل متعرفلوش وش من ضهر..!

ابراهيم : يا ناس حرام عليكم.. كل واحد يِلم لسانه.

٥ - انتو مش عارفين الاشاعات اللي بدور في البلد.. راجل أكله كله

ربا، وفلوسه كلها سحت وعشان يداري عن نفسه، يخطب عن المال الحرام.. دي مفقوسة يابه.

محمد: يا جدعان نحن لنا الظاهر، وباطن الناس موكول إلى خالقهم.. والله وحده أعلم بما في الصدور وسيحاسب الناس غدا على سرائرهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، والشيخ سعيد رجل ما علمنا عليه من سوء، إن هي إلا أقاويل ولم تثبت صحتها، والإسلام علمنا أن نأخذ بالظاهر في الأحكام، وهذا الرجل ظاهره " يعتاد المساجد.. فاشهدوا له بالخير "، فكفى خوضا في أعراض الناس.

برهومة : يسلم فُمك يا جدع.. فضوها سيرة بقى وكل واحد يروح على داره.. احنا مش فاضيين لوجع القلب ده، كل شويه كلام في كلام، يلا بينا نمشي يااخي، وسيبك م العالم الفاضية دي.

١ - قال يعني الواد مشغول قوي.

٢ - اللي يشوفك كده ميشوفكش وانت بتاخد على قفاك ف الورشة.

٣ - هو عامل علينا فِت وخلاص، يسيب الحمار ويشطر!

٤ - مختوش بالكو.. كان شكله إيه والمعلم حموده طالع م الجامع!

٥ - كان جلده بيدوب، مشفتوش كان بيرتعش ازاي.

محمد: مش دا واجب برده، من خاف سلم.

ابراهيم: بقى كده يا سي محمد، طيب أنا ماشي وسيْبك.

محمد : لا، أنا مصدقت لقيتك، دي حاجة مهمة خالص. طيب سلام عليكم يا رجالة.

المجموعة: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

انطلقا سويا للتمشية على ضفاف الترعة، وكانا قد تعودا على مثل هذه الرحلة كلما لاح لهم من الفراغ وقت، أو أرادا التحدث في أمر ما.

كان ابراهيم يكبر محمد في السن بخمس سنوات، وكان قد التحق بالورشة قبله بخمس مثلها. كان قليل التعلم كثير المرح، يأخذ المرح من ذهنه أضعاف ما يأخذ منه التفكير في العمل، ونصف مرحه سببه طبيعة الخِلقه الضاحكة فيه، أما النصف الآخر فسببه ظروف حياته التي حولَته إلى مهرج وساخر كبيراً ساخر من الظروف، ساخر من الواقع القاسي والمؤلم. فنصف مرحه الأول تعلة النسيان، ونصفه الآخر لمواجهة الظروف.. وكلاهما يخلقان برهومة: تخين المخ أحيانا، مرح الروح خفيف الظل، الفهامة، الحزين؛ أحيانا أخرى. وكأن الظروف التي وضع فيها إبراهيم جاءت هي الأخرى مكملة لطبيعة الخِلقة الساخرة فيه. فقد كان إبراهيم هو العائل لأربعة من الأخوة وأمٌ كبيرٌ مسنة. كان يعيش حياته لهم، كل هدفه أن يرعاهم حتى يستطيع كل واحد منهم بعد ذلك أن يعتمد على نفسه، لذا رضي إبراهيم بمكانه في الورشة صبي (كبير) ثابت الدخل، خيرٌ له من أن يجازف في الاعتماد على نفسه والاستقلال عن معلمه. ولقد كان ابراهيم بطيئ التعلم، مما عرضه في كثير من الأحيان لسخط المعلم وبغضه وسخريته المستمرة في

الرايحة والجاية. أما محمد فقد كان عكس ابراهيم، فقد كان ضِحكه أقل وتركيزه أعلى، وحبه للنِجارة جعله أكثر إقبالا عليها وأكثر اتقانا لها، ولعل الدافع وراء ذلك يرجع لسببين:

الأول حب محمد " للإبداع " والجديد في فن صناعة الخشب. والثاني: أن محمدا حدد هدفه من أول يوم دخل فيه الورشة: أن يكون هو " المِعَلِّم " في يوم من الأيام.

***

- إبراهيم : خير يا " حمام " آدي احنا بقينا لوحدنا، عايز سيادتك إيه؟!

- محمد : عايزك تبقى مِعَلِّم كبير !!

- " ازاى ازاى ازاى، أوصفلك يا حبيبي ازاى ".. ازاى قل لي؟

- زى الناس، هو كل الناس اتولدت معلمين وأسطوات! كلهم كانوا صبيان وبعدين كبروا وبقوا رجالة ومعلمين.

- " طيب يا معلم يا معلم، طيب يا معلم يا معلم " قول لي يا معلم: وعاوز تبقى معلم ازاى وليه؟

- في دماغي حلم كبير عايز أحققه من زمان !!

- "حلم إيه اللي انت جي تقول عليه" ؟

- أن أحرَّك نفسي وأن لا يحركني أحد، أن أرسم حياتي كما أراها

وتتناسب معي ليس كما ترسمها لي الأحداث والظروف، أن أنتصر على الواقع ولا ينتصر الواقع علي!

- وانت فاكر انك لما تبقى معلم وتملك ورشة ح تحقق حلمك ده، حلم إيه اللي انت جاي تقول عليه، انت عارف قبله معنى الحلم إيه؟ طريقك مسدود يا ولدي مسدود.

- لأ.. دي خطوة في طريق طويل، المهم فيه البداية ودي مرحلة من مراحل البدايات.

- وازاى ممكن تبدأ، ومنين نبتدي الحكاية، الحكاية يا حبيبي، يا حبيييبي؟

- تحط ايدك ف ايدي ونبدأ سوا.

- طيب، انت حتقق حلمك وانا حكسب من ورا ده إيه ؟! كسَّبني يا معلم كسبني، وعن الحبايب ما تبعدني.

- أنا عارف انك ح تحسبها بالمكسب والخسارة، مفيش مانع، نحسبها سوا: انت حتكسب مكسب أضعاف اللي بتخده من المعلم، وأظن انك عارف حجم المكسب ده ممكن يكون كام، ومعنى مكسب زي ده إيه بالنسبة لوالدتك وأخواتك؟

- وكل ده ح نحققه ازاي سيادتك يا سعادة البيه، يا سعادة البيه، يا بيه؟

- سيبك م التفاصيل، مش وقتها المهم المبدأ، وإنك توافق أولا.

– ومين اللي قال لك اني ح وافق، دا الحكم بعد المداولة، والجلسة قربت يا حبيبي.

– أنا عارف إنك لو فكرت كويس بالعقل ح توافق، انت صنايعي كويس ومفيش حد عارف قيمتك غيري، وانت بقالك كتير ف الصنعة وشربتها اكتر من أي حد، وعارف فيها اللي ميعرفوش إلا برهومة.. أما شوية الضحك دول.. دول لزوم الصنعة، وأنا متأكد انهم لو خفوا شوية حتعمل شغل عال، وحتثبت وجودك. انت مشكلتك انك مختش فرصتك ولا حد شجعك، ولو تم ده.. بكرة تشوف برهومة.

– طايب قول لي: وحتبدأ ازاي وانت عارف إن المشروع ده مش سهل دا عاوز فلوس وتخطيط وجهد والذي منه.

– جينا للتفاصيل، اسمع يا سيدي: أنا عامل حسابي على مبلغ كده شيله لوقت العوزة وآهو جه وقته، كمان أنا كنت عامل حسابي كل فترة كنت بشتري حتة عِـدة، أخليها عندي لوقت العوزة، وأكيد انت كمان عامل حساباتك للزمن. الخلاصة نشوف معاك كام، ومعايا كام ونشترك، وربنا يبارك.

– هوَّا الكلام كويس، بس المهم التنفيذ، وبعدين يا حلو انت فاكر إن المعلم حمودة ح يعديها كدة بالساهل ويسبنا ف حالنا نعمل ورشة وننافسه ف السوق، خاصة انك عارف كل الزباين وبيحبوك.. انت بتحلم. ده راجل سِماوي، متغركش بسمته ولَّا ضحكته، ياما تحت السواهي، وأنا معاه سبع سنين واعرفه أكتر منك.

- سيب المعلم عليّ، سأحاول اقناعه بطريقتي الخاصة، وبعدين ماهو عارف إننا كده كده حنسيبه إن عاجلا أو آجلا.

- والله باين عليك وش مشاكل.

- أرى أن خير علاج للمشاكل اقتحامها، فإنك إن تركت المشكلة؛ تضخمت وتزايدت وقُواك كما هي، بل ضعفت بالخوف منها واليأس من مواجهتها، لكنك إن واجهتها صغرت وتقلَّصت. إياك أن تخاف، أو أن تشك في قدراتك، ومهما كانت طاقاتك صغيرة، فما عليك إلا أن تبذلها كلها دون تردد، وحينها ستملك أمرك، لأنك بذلت ما في وسْعك، وبلغت الجهد من نفسك.

- برهومة : فلسفة تاني ؟

- دي مش فلسفة، دي حكمة الحياة، لو عايزها حتلاقيها منشورة قدامك في صفحة الكون. بطل انت تبص على الممثلات والبطون والصدور ممكن ساعتها تشوف حاجات كتيرة.

- آه.. فكرتني، مسلسل " هيركوليز " زمانها شغالة دلوقت، هي الساعة كام ؟ آه يا راجل، منك لله زمنها خلصت، وإيه العمل دلوقت؟

- العمل إنك تفكر في موضوعنا وترد عليّ في أقرب وقت.

- طاب وح نكلم المعلم إمتى؟

- إياك تجيب له سيرة، سيب الموضوع عليّ، وبعدين ح أقلك.

– طيب سيبني أفكر.

– وأنا سأنتظر ردك.

(٥)

رجع محمد إلى البيت بعد رحلته القصيرة مع إبراهيم فوجد أمه تجلس على الطبلية معها أمينة، والطعام أوشك أن يبرد للمرة الثالثة.

الأم : كنت فين يا بني إحنا بقينا العصر، إحنا فين والجمعة فين؟

أمينة : أكيد الشيخ سعيد طول في الخطبة النهاردة.

الأم: ولا تلاقيه هو اللي طوِّل في الصلاة، كان لازم يعني تصلي التراويح بالنهار.

محمد: لا دي ولا دي، استريحوا انتو بس.. وأنا ح أقلكم على كل حاجة، هاتوا الأكل قبل ما يبرد لحسن أنا ميت من الجوع.

أمينة: دا الأكل برد وتسخن، وبرد وتسخن، وبرد وتسخن.. تلت مرات.

وضعت الأم طعام الغداء على الطبلية، تناول كل واحد منهم ملعقته ثم شرع في الأكل.

أمينة : الشيخ سعيد كان بيتكلم عن إيه النهاردة ؟

محمد : كان يتحدث عن الكسب الحلال، والتصدق بالمال وعدم كنزِهِ.

أمينة : دا موضوع في غاية الأهمية، تصور يا محمد لو أن كل واحد في البلد أخرج زكاة ماله، وجُمِّعت هذه الزكوات في مكان واحد، وتم صرفها في عمل نافع لكل الناس، لما وجدنا في البلد كلها عاطل أو فقير أو مريض أو محتاج.

محمد: تخيلي كده، فيه كام ورشة في البلد، وكام دكان، وكام مشروع بيجيب ربح؛ دا لو كل واحد طلع بس زكاة ماله - بلاش الصدقات - كانت تبقى عـــز ووز؛ وجوز ولوز كمان. وما نلاقي في البلد فقير أبدا.

أمينة : قصدك زينا كدة؟

محمد: لا يا أمينة، إننا لسنا بفقراء؛ لقد عرفنا معنى الغنى الحقيقي؛ إنها القناعة بما في اليد، والزهد بما في أيدي الناس، إن دارا تملك هذه المعاني هي أثمن من قصور الأرض.. مش كده يا أم محمد ؟

الأم : أيوا كدة أيوا.

أمينة : مش ملاحظ إن والدتك مش معانا.

محمد : أنا ملاحظ حاجة واحدة؛ إننا كل ما نتكلم عن الشيخ سعيد وتيجي سيرته، والدتك تبطل كلام مش عارف إيه السر؟ أَلَّا ليه يا ست الكل؟ اوعي تكوني فاكرة إنه راجل مش كويس، الكلام اللي بيقوله الناس ده كله كذب وإشاعات، فليس لنا من الرجل إلا الظاهر وهوَّا ظاهره الصلاح؛ ثم إن والدي الله يرحمه كان يحبه، وكانو أصدقاء، هو قال لي كده، ومش معقول والدي الله يرحمه يحب حد مش كويس.

وضعت الأم اللقمة من يدها، وبدت على وجهها علامات التغير، ثم قامت واقفة: كفاية يا محمد كفاية، بطل كلام شوية، كله كلام في كلام، انت مالك ومال الناس، بتجيب في سيرتهم ليه؟ خليك في حالك، ولا انت عاجبك حالنا ده. لا يا بنى لأ، فوق لنفسك واصحى قبل ما حالنا يدهور أكتر من كده.

نظر محمد إلى والدته يتعجب من صنيعها، راعه كلام والدته بهذه الحدة التي لم ير مثلها من قبل، تساءل في نفسه عن السبب، إن والدته لم تكن لتفعل هذا لولا أن شيئا ما مس وترا حساسا بداخلها، حاول محمد أن ينسى ما حدث وأن يتعامل معه بشيء من الفكاهة والدعابة، على أن يحاول تفسيره والوقوف على أغواره فيما بعد.

أهو علشان حالنا ده أنا اتأخرت عليكم النهاردة.

أمينة : إيه يا محمد كنت بتلم لنا صدقات بعد الجمعة؟

ضحكت الأم.. الله يجازيكِ يا أمينة.

محمد: لا يا ست العرايس.. كنت أُعد لتأسيس مشروع العمر.

الأم : أي مشروع يا محمد؟

محمد : أنا بفكر أعمل ورشة خاصة لحسابي، وكفاية بقى شغل عند الناس.

الأم : إيه يا محمد ؟ فيه مشاكل بينك وبين المعلم حمودة؟

محمد : لا يا أمي.. المعلم راجل كويس وبيحبني زي إبنه "سعد" تمام ؛ بس انت عارفة إن حلم حياتي أن أستقل في عمل لأحقق طموحي وأحلامي، وقد آن الأوان لتحقيقه، ولكن كل ما كان يشغلني هو الكيفية والطريقة.

الأم: ما يكونش عندك هم، طالما إن كانت دي رغبتك. يا بني سيب الباقي على ربنا، ثم عليّ.

محمد : كيف؟

الأم : لا تشغل بالك بشيء، فهناك سر أخفيه عنكم، إن أباكم قد ترك لنا وديعة من المال كان ينوي أن يقيم بها مشروعا قبل موته ولكن سبقه الأجل، وقد احتفظت لكم به طيلة هذه السنوات ولم تمتد إليه يدي عسى أن يأتي اليوم الذي تحقق فيه حلم والدك، وها قد جاء اليوم الذي ترث فيه ميراث والدك.

محمد: إني لأتساءل كم من الأسرار تخفيه عنا يا أمي؟

الأم : سوف يأتي اليوم الذي أخبرك فيه بكل شيء، وتعلم فيه كل شيء.

محمد: إذن نضع ما معك من المال على الخمسمائة جنيه التي معي، وسوف يشارك إبراهيم هو الآخر بمبلغ إن وافق على مشاركتي، وبهذا نقوم إن شاء الله بتنفيذ المشروع وعمل الورشة.

الأم : ورأيك إيه في إبراهيم ده يا محمد يا بني ؟

محمد: هو طيب وابن حلال، لولا بس شوية الهرج والمرج اللي بيعملهم دول، إنما غير كده هو راجل كويس بيفهم في الصنعة وعمره ما يقبل الحرام على نفسه أو إخواته أبدا مهما حصل، ودي أحسن حاجة فيه، وإن كانت أكبر مشكلة فيه إنه معندوش ثقة في نفسه أو قدراته، وخواف شوية

الأم: أوعى يا بني يصل بك خوفه وقلة ثقته في نفسه إلى أن يَشي بك، أو أن يغدر بك كما غُدر بأبيك، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتينَ.

محمد : يا أمي لا يغني حذر عن قدر، والمكتوب في صحائف القدر لابد أن ترى حقيقته الأعين، ولكن ما على المرء إلا أن يأخذ بالحذر وربنا سبحانه وتعالى يقول: " يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم " وعددها مرارا حتى يفطن الغافل عنها إليها.

الأم: إذن سأجهز لك النقود.

محمد : وأنا سأستطلع الأمر وأجس نبض المعلم تجاه المشروع.

أمينة : ما شاء الله ما شاء الله، والله صبحنا من ذوي الأملاك يا جدعان، بكرة تروق وتحلى ويبقى محمد أخويا أحلى.

(٦)

كانت هذه الليلة شديدة الظلام، رياحها شديدة فالكل قابع في بيته منذ دخول الليل، ومحمد لم يحضر حتى هذهِ اللحظة من الورشة، وقد جلست أمينة مع والدتها حول الطبلية وقد أُوقدت لمبة جاز تذاكر فيها أمينة.

الأم : محمد تأخر جدا هذه الليلة.

أمينة : ولا تأخر ولا حاجة، دا أذان المغرب يدوب ما بقى له حاجة بسيطة.

الأم : لا.. أنا قلقانة عليه، اقعدي انت ذاكري، وأنا حروح أقابله في الطريق.

قامت الأم واقفة، وضعت غطاء رأسها، همت بفتح الباب.

أمينة : إشمعنى النهاردة حتروحي تقابليه، ما هو طول عمره بيتأخر.

لم تعبأ الأم بكلامها فقد كان شيئا ما يشغلها تود أن تخرج من أجله. خرجت أم محمد.. سلكت طريقها في الظلام، وكان واضحا أنها لم تذهب لمقابلة محمد، فقد خالفت الطريق، وانحرفت في طريق آخر يؤدي إلى بيت الشيخ سعيد على سكة الزراعية القديمة.

كان بيت الشيخ سعيد بيتا كبيرا، أمامه فناء واسع، نبتت فيه بعض الشجيرات ونخلتين، وله باب خشبي صغير. اختبأت الست عنايات خلف بعض شجيراته في الجنينه تنتظر الشيخ سعيد حال عودته من صلاة العشاء، وما إلا دقائق حتى حضر الشيخ سعيد يمشي بخطوات متئدة وفي يده مسبحته.

- سلامُ عليكم يا شيخ سعيد.

فاجأته الست عنايات، فوقعت المسبحة من يده. لم يكن يتوقع حضورها إليه، أو مقابلتها له خاصة على هذه الصورة، وبهذا الشكل.

- مين، أم محمد؟

- إيه يا شيخ سعيد أنا منظري بيخوف كده، أُمال فين يقين العلماء وثباتهم يا مولانا.

- دا مش خوف يا ست عنايات، ولكنها المفاجأة.

- ألم تكن تتوقعها؟

- ولكنها تأخرت كثيرا، وما كنت أظنها ستحدث الآن.

- كنت تظن أن الحقيقة ستظل مختفية إلى الأبد، وأن صاحب الحق سينسى يوما حقه ولن يطالب به، إنك إذا واهم.

- هل ما زلت تقتنعين بها رأسك ولم تغيريه.

- ومتأكده منه كمان.

– انت فاكرة إني كنت السبب في موت الشيخ حسن، والله ده عمره ما حصل أبدا.

– أنت لم تكن السبب في موته، أنت ممن شاركوا في موته.

– أحلف لك والله..

– لا تحلف، فما جئت من أجل مناقشة هذا الآن، فما هذا زمنه ولكن له وقت آت لا محالة، ويومها ستظهر الحقيقة جلية أمام كل الناس، وسيعُرف من الجاني ومن المجني عليه، ومن هو الظالم ومن المظلوم.

– إذن لم جئت الساعة؟

– وديعة الشيخ حسن، هل تذكرها أم..؟

– لم أنس الأمانة يوما، فلم يجعلنا الله ممن يأكلون حقوق الناس غصبا. وأنت تعلمين جيدا، أنه لولا أمانتي لم يكن ليأتمنني عليها الشيخ حسن.

– أودعها لك لتقيما بها المشروع سويا، ولكنك لم تفعل.

– منعني موته، ولكني نميتها لكم في الحلال، كان الشيخ قد أعطاني ألفا، وهي الآن خمسة أدخرها لكم حالما تطلبونها. ووالله ما امتدت يدي منها على شيء، ولولا رفضك أخذها مني قبل ذلك لكنت أعطيتها لكم منذ زمن مع أرباحها.

– على العموم أهو جه وقتها.

- وأنا مستعد لأن أفي بما وعدت، وأن أسلمك حقك كاملا غير منقوص.

- لعلها الكفارة تكفر بها عما فعلت في صاحبها.

- بل البشارة إذ صدق فيّ ظن صاحبها رحمة الله عليه، وغدا سوف يأتي اليوم الذي ستصدقين فيه ذلك.

- وأنا متأكدة إن اليوم ده قرب قوي.

دخل الشيخ سعيد مسرعا إلى بيته، وما هي إلا ثوان حتى جاء بالنقود يحملها في شنطة فأعطاها للست عنايات.

- اتفضلي حقك يا ست أم محمد، كنت شايله عارف إنك حتما في يوم ح تطلبيه.

- كلك واجب يا شيخ سعيد - على فكرة - السبحة دي كانت وقعت منك على الأرض، شكلها كده مش غريب على.

- دي سبحة الشيخ حسن، أعطاها هدية لي ليلة موته، وما زلت أحتفظ بها في حلي وترحالي ولا أتركها.

- بل تركتها حتى وقعت على الأرض.

- تركتها لك لتلتقطيها وتأخذيها أنت.

- لا لم أكن لآخذ شيء أعطاه الشيخ حسن منحةً لأحد.

- ولولا أنه أنت، ما كنت لأفرط فيما أعطانيه الشيخ حسن.

أعطته الست عنايات المسبحة ثم انصرفت، وبقى هو في مكانه يراقبها حتى توارت عن نظره وهو يتمتم في نفسه بقول الله تعالى: " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل.. ".

وصلت الست عنايات إلى المنزل، وكان محمد قد حضر ولم يجدها، وقد بدت عليه وأخته علامات القلق على مصير الوالدة التي خرجت دون داعٍ يدعوها للخروج.

الأم : خير يا ولاد أنت واقفين قدام البيت كده ليه؟

محمد : كنا بنفكر إزاى ندور عليكي؟

– انت بدوَّر عليّ، ولا أنا اللي بدوَّر عليك؟

– انت عوزة تفهميني انك كنت بدوري عليّ، إن هذا لم يحدث قبل، فلم حدث الليلة؟ ثم إنك جيت من طريق غير طريق الورشة، إيه الموضوع بالضبط ؟

– لا موضوع ولا حاجة، كل ما هنالك، أني كنت أحضر لك فلوس المشروع بتاعك، وآدي الفلوس آهه في إيدك، اتفضل: ألف، اثنين، ثلاثة.. خمسة آلاف جنيه.

أمينة : إيه دا كله، ومنين ؟

الأم : هذه نقود أبيكم خلّفها لنا قبل أن يموت، تركها وديعة، وها قد عادت الودائع لأصحابها.

محمد : مع من كانت هذه الوديعة.

- دا مش شغلك، تشغل بالك بيه ليه، المهم إن مشروعك يتم وخلاص.

- بس لازم أعرف.

- بكرة تعرف كل حاجة، يلا بينا دلوقت نتعشى لأن سيادتك جوعتنا بتأخيرك كالعادة.

تناولوا العشاء، في صمت غير معهود، يتخلله النظرات التي تتساءل في صمت عما جرى، ثم قاموا كل واحد إلى سريره. وضع محمد رأسه على السرير ثم راح يفكر متسائلا: أين كانت أمي؟ ومن أين أحضرت النقود؟ ومع من كانت وديعة؟ ويا ترى كم من الأسرار تخفيه عنا أمي؟ أبي كان يعشق أسرار المعاني، وأمي تخفي عني أسرار الحقائق، ترى ما حيلتي مع هذه الأسرار؟ متى أستجلي حقائق الأشياء؟ ومتى أفض بكارة الطلاسم؟ ومتى أستطلع حقيقة الرموز؟ متى أكون سرا كي أكشف السر؟ ومعنىً كي أستلهم المعنى؟ يالها من رحلة عميقة في كهف مظلم!

(٧)

قام محمد من نومه مبكرا كعادته، ذهب إلى الورشة بعد أن ودع أمه، واطمأن على ذهاب أخته إلى مدرستها.

وكان عجيبا أن يرى محمد باب الورشة مفتوحا في هذه الساعة المبكرة، راعه الأمر، أسرع في مشيته يستطلع حقيقة ما يحدث، دخل الورشة، فإذا بصديقه إبراهيم داخل الورشة، كان إبراهيم جالسا، ليس في مكانه المعتاد، ولكن على كرسي المعلم حمودة، فانتفض فزعا من مكانه عند دخول محمد.

إبراهيم: منك لله يا شيخ، سيَبت مفاصلي، ووقعت قلبي، كنت بحسبك المعلم، مش تقول إحم ولا دستور يلي قاعدين، يا أخي إدي جرس ولا كلكس.

محمد : على مهلك شوية، بُرّاحة، قل لي انت بتعمل إيه بالظبط؟

بذمتك القعدة دي مش تمام، القعدة هنا لها طعم تاني خالص.

محمد: وعليها مسئولية أكبر.

– مش مهم المسئولية، المهم الفخفخة في القعدة، وحجم الكرسي اللي انت قاعد عليه.

– لا يا فالح، مش ح يفيدك يكون الكرسي أكبر منك، ولكن ينفعك أكتر إنك تكون أكبر من الكرسي اللي انت قاعد عليه. وبعدين القدرة على تحمل المسئولية هي التي تزيد من حجمك ورصيدك عند الناس. لكن قلي إيه معنى كلامك ده؟ هل معناه إنك اخترت الكرسي خلاص؟

– تقصد إيه يا حاج محمد ؟!

– يعنى إنت عاوز تبقى معلِّم عشان الناس تقول معلِّم، ولا لأنك تملك القدرة على المعْلَمة صح.

– الاتنين وحياتك.

– لا تنفع الأولى إلا بالثانية.

– وأنا سأحاول أن أجمع بينهما.

– إذن معنى هذا أنك قبلت شراكتي في مشروع الورشة الجديد؟

– لسة ما فكرتش كويس.

– عاوز تقولي إنك بعد "الكرسي" وكلامك ده، لسه ما فكرتش، يأخي روح.

تركه محمد غاضبا، وذهب إلى الجانب الآخر من الورشة معلنا عدم رضائه بالحوار، مبديا استيائه من الرد. قام إليه إبراهيم.. اقترب منه.

– إنت زعلان ولا إيه.

– طبعا زعلان، أنا عمري ما أحب الضعف ولا التردد، كلاهما عدو

لي، وأنت ضعيف ومتردد، وبهذه الصورة لا يمكن أن نشترك سويا في عمل أبدا.

- ما انت عارف يا محمد إني متعودتش آخد قرار كده بالساهل، لازم أدرسه وأفكر فيه علشان مندمش عليه بعد كده، هل تستكثر عليَّ فرصة للتفكير؟.. وبعدين يا سيدي ما تزعلش، أنا موافق إني أكون شريكك في المشروع بس بشرطين: الأول: بالربع؛ لأنني لا أملك من المال ما يؤهلني لمناصفتك، ثم إن هذا أضمن لي وأسلم، وكمان عشان لو خسرنا مخسرش كتير.

- محمد : والثاني ؟

- والثاني يتعلق بالمعلم حمودة وكيفية إقناعه بهذا الأمر، لأنني إستحالة أقدر أفتحه في الموضوع أو أكلمه فيه، وانت عارف إني شغال عنده من زمن وله فضل كتير علي أنا وأمي واخواتي.

- يعني بتحطني في المواجهة وتسيبني قدام المدفع لوحدي، على العموم أنا كنت متوقع ده منك، وأنا قبلت المواجهة.. ولابد أن أنتصر.

- تنتصر على مين يا محمد ؟

- محمد (وقد رأى المعلم داخلا): المعلم! حمد الله على السلامة يا معلم.

حمودة: خير يا محمد؟

محمد : كله خير يا معلم، دا أنا وابراهيم بندردش زي عوايدنا،

وبعدين دي فرصة إحنا بدري ومفيش حد معانا.

حمودة : وأنا برده بقول إيه النشاط دا كله، المعلم برهومه بنفسه جي في الساعة دي، يا ما شاء الله يا ما شاء الله. إيه النشاط ده يا سي برهوم؟

برهومة: دا بس من كرمك يا معلم.

حمودة: هييه، وأخبار الشغل إيه، أنا جي مخصوص بدري النهاردة علشان أطمئن.

محمد : كله تمام يا معلم، طلبية الحاج زعتر اتسلمت، وآدي إحنا خلاص على وش تشطيب طلبية الحاج جودت، كلها يومين بالعدد ونسلم قبل المعاد.

حمودة : الحقيقة يا محمد يا بني من يوم انت ما جيت والبركة حلت والرزق في زيادة.

محمد : وآهو دة اللي مخوفني يا معلم.

حمودة : مخوفك! وهو الرزق بيخوف يابني.

محمد : لا يا معلم ما أقصدش الرزق، أقصد علشاني أنا.

– عشانك إزاى.

– أنا خايف في يوم أسيبك يا معلم.

– تسيبني، وليه، في حد ح يديك أكتر مني؟ أدفعلك الطاق اتنين.

– المسألة مش مسألة فلوس يا معلم.

– أُمال مسألة إيه ؟ ناوي تسيب الشغلانة دي ولا إيه ؟! طيب قلي لما تسيبها حتشتغل إيه ؟! ولا تكونش ناوي تعمل بيه وتقعد كده من غير شغلة ولا مشغلة؟

– لا يا معلم مش كده بالظبط.

– أُمال إيه، قلي؟

– أنت عارف يا معلم أنني من زمان بحلم أن تكون لي ورشة بتعتي، أديرها بنفسي، وأصنّع فيها شغل تاني غير شغلنا إحنا، ثم إن حضرتك عارف إن دي كانت أمْنية والدي الشيخ حسن قبل ما يموت أن يكون له ورشة بتاعته، ودي حتى كانت قبل أنا مخش الصِنعة وأتعلمها، ولعله يكون دا السبب الأول في الفكرة دي، أن أحقق أُمنية الوالد، وأن أحقق كلامه ووصيته.

صمت المعلم قليلا، وأخذ يتلفت في الورشة، بينما محمد ساكت ينتظر الرد، وبرهومة قد ذهب في الناحية الأخرى من الورشة، يوهم المعلم بأنه يعمل بينما هو مترقب، يتسمع الحديث من أوله إلى آخره.

حِموده : انت كده جيت ع الجرح يا محمد، كان لازم تقول يعني إن دي أُمْنية السيد الوالد عليه رحمه الله، علشان مقدرش أتكلم. لكن يا بني أنت فاكر إن الموضوع سهل. عاوز كده في يوم وليله تعمل ورشة وتبقى معلم وتنزل السوق، الموضوع ده صعب يا بني، دا عاوز راس مال، وصنايعية، ومكان كبير، وخشب، وتخطيط، وفهم للسوق.. وحاجات كتيرة قوي إنت متعرفهاش، الموضوع مش سهل زي ما انت

فاكر، دا السوق يا بني فيه حيتان ممكن يكلوك.

محمد : والله يا معلم، أنا عزمت، وعقدت النية، وربنا يقول في كتابه: " وإذا عزمت فتوكل على الله".

حمودة : وبيقول برده يا بني : " وشاورهم في الأمر ".

محمد : والله أنا شاورت الست والدتي، وبعض أصدقائي وخلاص نويت، ثم أنا يا معلم مش عاوز مشروع كبير ولا حاجة، دي يا دوب حتة دكانة ع القد أبدأ بيها وبعدين تفرج.

– يا بني اللي شاورتهم دول، أعذرني، ما بيفهموش ف الصنعة، إسأل مجرب ولا تسأل حكيم.

– والله يا معلم أنا محروج منك، بس أنا خلاص أخذت قرار، وعاوز أجرب.

– والله إن كان دا رأيك يا بني خلاص، اللي انت عاوز تعمله اعمله.

– وأنا لي عندك طلب تاني، معلش يا معلم.

– إن كان فلوس يا محمد، أعذرني، انت عارف إن كل فلوسي برة، ودا كله على إديك.

– لا يا معلم مش فلوس ولا حاجة، الحمد لله ربنا سترها، أنا بس بستسمحك ف إبراهيم، آخده معايا، انت عارف إننا صحاب ومقدرش أستغنى عنه.

- يعني جيت ف جمل يا خويا، خده يا عم معاك، أهو تريحني منه، وأهي الورشة مليانة غيره كتير، كل ما هنالك إنك عارف حالته، وأنا خايف على أمه وإخواته من الموضوع ده، ع العموم إن وافق يلا، سكة سلامة.

- تشكر يا معلم، وربنا يزيدك ويوسع عليك، أنا كنت عارف إنك عمرك ما ح ترد طلبي أبدا، ربنا يبارك لك ويعطيك من خزاينه.

ولما هَمَّ محمد بالانصراف ليتم عمله، نادى عليه المعلم:

- أمرك يا معلم.

حمودة : معلش يا محمد أنا ليّ عندك طلبين قبل الموافقة.

محمد : اتفضل يا معلم.

- أول شرط إنك ما تسيبنيش قبل ما خلّص الطلبية المطلوب تسليمها، وعلى حتى ما أكون دبرت أمري وشفت بديل لك انت وإبراهيم.

- والثاني؟

- والثاني أن تَوعِدُني بالرجوع في حالة التعثر، فبابي مفتوح لك في أي ساعة وأي وقت لو حبيت ترجع.

- أوعدك يا معلم.

انصرف محمد يواصل العمل في الورشة، وقد خفف عن قلبه نجاحه

في إقناع المعلم بوجهه نظره وفكرته. بينما راح المعلم في صمت يفكر فيما تم من حوار بينه وبين ومحمد، وبدا عليه أنه يتمتم في نفسه بكلمات لم يفهم محمد منها شيء.

جلس المعلم على كرسيه، ثم أخذ يقول بصوت خفيض: والله يا ابني أنا خايف عليك، يحصلك زي اللي حصل لأبوك الشيخ حسن، أهو كان كده بالظبط، مفيش حد في عينه، اللي عاوزه يعمله.. لحد ما حصل اللي حصل. ومين عارف يا ابني الأيام مخبية إيه في كِرشها الواسع.

(٨)

انتصف ليل القرية ولا يمر في شوارعها أحد، الصمت يخيم على البيوت، صوت الضفادع يختلط مع صوت الريح وهي تحرك الأشجار في عنف، وبعض النور يمتد إلي الفضاء من مصابيح خافتة تبث نورها على استحياء في ظلمة الشتاء الحالكة.

... جلسوا ثلاثتهم كعادتهم وصوت الشيشة يكركر في الفضاء يختلط وقهقهات حناجرهم يسابق الدخان خارجا من الثقوب.

فريد : يا سلام عليك يا معلم حمودة، دا انت طلعت مغفل بشكل، حتة واد مطلعش م البيضة يضحك عليك كده، ويديلك مقلب كبير بالشكل ده، مكنش العشم يا معْلَمة.

حمدان : معذور أصل المعلم حمودة قلبه طيب، وصدره واسع.

فريد : عشان كده نَفَسُه في الشيشة أكبر..ها ها ها.

حمدان : قصدك كُحته أطول.

فريد : أُمْال لو كان بيشرب زيك يا واد حمدان كان عمل إيه؟ أكيد كان ودع من زمان.

حمدان : وكنّا بنينا له مقام جنب مقام الشيخ حسن، وسمناه مقام

سيدي حمودة أبو قلب طيب وأبو عمة جنان.

حمودة (وقد نفذ صبره): انتو مش ناويين تبطلوا تهريج بقي، مرة الشيخ حسن، ومرة ابن الشيخ حسن، إيه الحكاية، متفضوها سيرة، هو الراجل ده عملكوا إيه ؟

حمدان : لأ لأ، بينها قلبت بجد، اسكت قبل ما يُكرشنا من بيته، ويضيع علينا السهرة، ونروح ف خبر كان.

فريد : مالك يا حمودة، إيه اللي زعلك يا راجل، علشان بنتكلم على ابن الشيخ حسن، وفيها إيه، بذمتك انت متزعلش لو لقيت واد مطلعش م البيضة يضحك على شنباتي ويديني أحلى مقلب، يا راجل دي الجرايد لو تعلم بالخبر تبقى فضيحة بجلاجل.

حمودة : أنا مش فاهم قصدك إيه بالضبط، واحد مش عاوز يشتغل معايا، أشغله بالعافية، إزاي ده يحصل؟

فريد : دا مش واحد، صحيح دا ولد صغير، بس أنا وانت عارفين قيمته بالضبط، ولا انت ناسي إن الورشة كلها قايمه عليه، وإن تلت تربع مكسبنا منه، منتش فاكر، أفكرك.. الورشة دي من خمس سنين قبل ما يعَّتبها الواد ده، ما كنش ليها سعر، ولا حد بيبص عليها، وأدي انت شفت لما جه إيه اللي حصل، اشتغلت وبقى لك سعر وصيت في الداير، ودا كله عشان الشوية همبكة اللي بيعملها ف الشغل وبيسميها فن، لكن ما تعرفش آهي الناس بتعجب بيها وتشتريها، والمهم الثمن.

حمدان : وكمان سبب تاني، متنساش إن كونه ابن الشيخ حسن بيخلي الناس تحبه وتثق فيه، والزباين بتيجي على السيرة.

فريد : واللي منتش عارفه يا حمدان أكبر من كده بكتير. أقول يا حمودة.. البضاعة إياها السوقي المضروبة، اللي بتخش في كل طلبية من غير ما يحس بيها محمد.. ودي لوحدها مكسب تاني.

حمدان : يعني مكسب من كل جيهة.

حمودة : طيب قلولي كنت أعمل إيه؟

حمدان : ترفض طلبه طبعا.

فريد: وإن أصر على موقفه تشترط عليه إنه ما يفتحش ورشته ف البلد ولا الجِيرة. يعني تبقى موتة وخراب ديار، يسبنا وكمان يا خد الزباين مننا.

حمودة : إحنا لسة فيها، أبعت له أكلمه وأقنعه برأيي ده.

فريد : تقنعه لأ.. تؤمره آي، وإلا يا حبيبي حنفض الشركة اللي بينا وانت عارف ده معناه إيه.

حمدان : هو انتو شركة ولا إيه يا حمودة ؟

حمودة : بالنص يا سيدي بالنص، الناس فكرة إن كل الخير دا ليّ لوحدي وفي الباطن نص المكسب له.

حمدان : يعني أنا عامل زي الأطرش ف الزفة، صاحبكم بقى

لي خمسة وعشرين سنة، وأكتر م الأخوات وفي الآخر أطلع مغفل ومعرفش عنكم أي حاجة، دا انت يا حاج فريد فظيع، انت شيطان يا راجل، ياما نفسي أعرف دماغك دي بتفكر إزاي وإيه اللي فيها، أكيد أبالسة وشياطين

فريد : هو انت فاضي لحد، انت راجل مشغول ف تجارتك ودكاكينك الواسعة: محلين هنا ف البلد، واثنين ف المركز، دا غير اللي أنا والمعلم حمودة عرفينه كويس، هو انت كرشك كُبر من شوية، دا انت شوية وتبلعنا احنا كمان.

حمدان : خمسة وخميسة، الله أكبر الله أكبر، يا عين يا شر كفاية قر، حرام عليك يا شيخ، ربنا سترها معاك والرزم ف البنك أرانب وبتتولد من غير مشاريع ولا دياولو، لا تتحمل تكاليف ولا خسارة، أنا مش قلت لك يا حمودة من زمان يلا نحط فلوسنا ف البنك ولا حَن ولا قر، آهو كنا زمنا عيشين ع الريع بتعها ولا حد سمع بينا ولا بص لنا في اللقمة اللي بناكلها.

حمودة : يا أخي عيب عليك، منتش عارف إن البنوك حرام، دا ربا يا راجل؛ عاوز تآكل ربا.

حمدان: والله زمان يا حاج فريد، الكلام ده فكرنا باللي مضى، آهو الكلام دا نفس كلام الشيخ حسن.

فريد : أهي احنا خلصنا منه وارتحنا من زمان، كان زمانه موقف حالنا.

حمدان : أهو ابنه بيكمل نفس الدور، بس المرة دي مش بالخطب والكلام؛ بالعمل واقناع الناس واحد واحد وبالحُجة والمنطق، واللي حسبناه مات عايش في جلباب تاني.

فريد : ومين عارف ممكن يحصله اللي حصل لأبوه.

حمودة : يا راجل حرام عليك، دا اللي حصل لأبوه كان بشع بشكل بغيض، ومازالت الجريمة إلى الآن في أذهان الناس، هو فيه حد في الجيرة والداير مات موتة زيها، يموت ف قلب الساقية المهجورة، ومحدش يعرف القاتل لحد دلوقت ! دا الناس من حُبها فيه سمت الساقية اللي مات فيها " ساقية الشيخ حسن "، الله يجحمه القاتل بقى مطرح ما راح ويورينا فيه يوم.

رد عليه الحاج فريد، وقد بدا عليه وهو والمعلم حمدان أثر الغضب والامتعاض حين ذكر القاتل بسوء ودعا عليه.

فريد : أهي ديه المشكلة.

حمودة : مشكلة إيه بالضبط.

فريد : حبك للشيخ حسن زمان، ولابنه الآن هو اللي موقف حالك، حبه زي ما انت عايز بس تخسر تجارتك وفلوسك بسبب حبك لابنه لأ. وإن كنت عاوز تخسر اخسر انت لوحدك أما أنا لأ، نفضوها شركة وكل واحد ياخد نصيبه، وأنت عارف إن نصيبي ف جيبي وأنا مش خسران حاجة.

حمدان : إيه يا رجالة، جرى إيه، هو احنا بنتقاسم ولا إيه، حتة ولد بيفرق بينكم بالطريقة دي، بطلوا بقى لعب العيال ده، وخلونا نكمل السهرة.

فريد : لا سهرة ولا يحزنون، يلا بينا يا عم قبل ما تكبر ف دماغه ويطردنا من داره.

حمودة : اقعد يا عم الحاج، حتبوز الحجرين اللي ف نفوخي.

فريد : نظبطهم لك عندي الليلة الجاية.

حمدان : وأهو الجو بيكون عندك جنان، لا عكننة ولا يكون حد زعلان. سلامو عليكم يا حمودة

حمودة : وعليكم السلام، أشوفكو بكرة على خير.

انصرف حمدان وفريد، وبقى المعلم حمودة وحده يفكر فيما دار من حوار بينه وبين رفيقا عمره، ويتعجب من هذه اللهجة الجديدة التي سمعها من الحاج فريد ولم يكن قد تعود عليها منه قبل، وأخذ ذهنه يعيد جُملا وحوارات مما قالاه هذه الليلة. حاول المعلم حمودة النوم فلم يستطع، مازال خبر فض الشراكة بينه وبين الحاج فريد يؤرق منامه، كيف يمكن أن يحدث هذا، سيضيع نصف ماله الذي سببه الرئيسي ثروة فريد، وسيضيع النصف الثاني بذهاب محمد، إذاً ماذا بقي لي وما العمل إذا ؟

كان المعلم حمودة يعرف أن صاحبيه أكثر منه ثراء وهو أقلهم، كان

يرضى طيلة عمره بالقليل ولم يسعى للمال مثلهم، بل كان مثله في الحياة :" قليل يكفي خير من كثير يطغي ". ولكن ربما يكون المرء مؤمنا بالشيء وتكون الصعوبة كل الصعوبة حال اختباره في تحقيقه. ما العمل إذا ؟ المال.. الشراكة.. الشيخ حسن؟ أسئلة كثير بلا إجابات تتزاحم في عقله، كادت رأسة أن تنفجر، مد يده، جلب قرصا منوما من مكانه، ابتلعه.. ثم غاب عن الوعي بعد دقائق، ومازال فكاه فاغرين وكأنهما يتساءلان: ما العمل ؟.

(٩)

جلس الحاج فريد بعمامته الحمراء المعصوبة فوق رأسه، ووجهة الممتلئ ذو الندوب والأخاديد الكثيرة ينظر إلى الحاج حمدان، وقد وُضعت أمامهما أطباق من الفاكهة، وطبق كبير من الفحم المحُمَّي لزوم الشيشة، كانا في انتظار المعلم حمودة.

حمدان: إيه يا راجل انت تقلت على حمودة إمبارح قوي، خِف عليه شوية، حمودة عضمه طري، مش زيك عضمك عضم ديب.

فريد: وآهو علشان كده أنا شديت عليه، كان لازم أعمل كده، أنت عارف إن حمودة ضعيف ومستشيخ فيها حبتين، ولو مورتلوش العين الحمرا حينخ زي الجمل ويوقعنا ونفسه في خبر كان، وبعدين أنا كان لازم أوجع له بطنه، علشان يتحرك ويعمل حاجة.

حمدان: بس انت تقلت العيار حبتين، دا كان كلامك له زي ما يكون تهديد.

فريد: وانت لازم يعني تستعبط فيها وتسوق الهبل ع الشيطنة، وتعمل نفسك مش عارف حاجة، كأنك من بنها. ما انت عارف إنه شريكي من زمان.

حمدان: وانت يعني عوزني أكشف كل ورقنا قدامه زي ما انت

بتعمل.

فريد: وأنا عملت إيه؟

حمدان: عمال تتكلم عن الشيخ حسن بغيظ وكراهية، وتقول خُلصنا منه، والبلد ارتاحت. يا راجل مش خايف الراجل يفكر في الموضوع بطريقه تانية.

فريد: لا تانية ولا تالتة، الموضوع خلاص مات من زمان واندفن، وانت عارف إننا دفناه سوا، وخلاص الموضوع مش محتاج السرية والكتمان بالشكل اللي يغيظ ده.

حمدان: الموضوع مش بالساهل كده، وسرك وسري لازم نحافظ عليه، والماضي اللي انت بتقول إنه مات؛ عايش في جلباب النهاردة.

فريد: قصدك محمد؟ وإيه يعني، اللي اتعمل في الماضي من السهل نكرره في الحاضر ولا من شاف ولا من دري.

حمدن: مش فاهم قصدك إيه؟

فريد: واضح زي الشمس، نسلط عليه المعلم حمودة يجيبه زي ما جاب أبوه، والباقي انت عارفه

حمدان: مبلاش السكة دي تاني.

فريد: خلاص الطيب أحسن، نخلي حمودة يكرشه برة البلد وبكده نأمن شره.

حمدان: إزاي، وانت عارف إنه بالفعل خد دكانة وبيجهزها ع التشطيب وكلها يومين ويشتغل، وعُمر حمودة ما حيقدر يكلمة إنه يغير رأيه.

فريد: والله دي مشكلة حمودة وهو حر فيها.

لم يكد يكمل فريد حديثه، إذ ترامى إلى سمعهما صوت المعلم حمودة ينادي.

حمودة: يا حاج فريد، يا حاج فريد.

فريد يأمر ابنته (بشرى) كي تفتح الباب للمعلم حمودة.

كانت (بشرى) هي البنت الكبرى للحاج فريد، تليها أخت تصغرها بسنوات كانت تسمى (إنصاف) وهي فتاة معتوهة، ناقصة العقل، صارت تدور في الطرقات، بعد أن عجز أبوها عن حبسها في البيت بعد أن ظلت فيه لسنوات. كانت إنصاف كثيرا ما تتمتم بكلمات غير مفهومة، وأحيانا تنطق بكلام هو الحِكَم، أحبها أهل القرية مع كرههم لأبيها، أما أبوها فكان يكرهها، ويرى أنها هي عمله السيئ في هذه الحياة. وكم كانت فرحته وسعادته حين وُلدت له بشرى بعد موت أربعة من الذكور صغارا، فلما ولدت بشرى وعاشت، سماها (بشرى) فرحة وتيمنا بالاسم.

كانت بشرى فتاة ناضجة، عاقلة، طباعها غير طباع أبيها إذ أنها تربت فترة كبيرة في بيت أخوالها وتطبعت بطباعهم.

فتحت بشرى الباب، دخل المعلم حمودة باسم الوجه. ما شاء الله، ما شاء الله، عروستنا الحلوة بقت زين، أما لو تسمع كلامي يا حاج فريد وتوافق، أجوزها للواد "سعد" ابني وأهو راجل ملو هدومه، ويُعتمد عليه في كل شيء.

فريد : ملو هدومه آه، ملو جيوبه لأ، لا يا عم أنا حجوزها للي يتقلها بالمال، مش واحد خيبان زي ابنك.

حمودة: بقى كده، طاب وشرفي لأجوزة برنسيسة وبكرة تشوف.

فريد: كان حلم جميل خده الغراب وطار.. هأهأ.

حمودة : عجبك الكلام ده يا حمدان؟

حمدان: الحاج فريد بيهرج معاك يا راجل.

حمودة : طيب النهاردة بيهرج، وكان إمبارح بيهرج كمان.

فريد: أنت زعلت ولا إيه، يا أخي خلي صدرك واسع، وبعدين يا سيدي ما تزعلش حجوزها للواء إبنك.

حمودة: طيب والشركة؟

فريد: آ.. قول كده، يعني انت يهمك الشركة مش الجوازة؟

حمدان : الراجل باقي ع العِشرة، والصداقة والعيش والملح.

فريد : خلاص، وأنا من عندي اللي تقولو عليه أنا موافق عليه.

حمودة: أولا زي ما انت عارف إن محمد فتح الورشة وخلاص

ومقدرش أرجعه، وفي نفس الوقت منقدرش نفض الشركة دلوقت لأن شكلها حيبقى معناه إننا هدينا كل شيء علشانه.

حمدان : وبعدين ؟

حمودة : وأهو ده اللي أنا جي عشانه.

فريد : حتمل إيه ؟

حمودة : احنا ما خسرناش كتير، كل ما هنالك إننا فتحنا فرع لنا جديد.

حمدان: مش فاهم.

حمودة: أفهمك، الشغل اللي حيجي إحنا نستلمه، ونديه لمحمد من الباطن، ونفهمه إننا بكده بنساعده وعوزين مصلحته وعوزين نوقفه على رجليه، وندي الشغل لمحمد بسعر، ونحاسب إحنا الزبون بالسعر اللي يريحنا، ونكون بكده ضربنا عصفورين بحجر: مخسرناش الزباين، و محمد مضرناش لما سبنا.

فريد: الله عليك لما تفكر.

حمدان: أنا كنت فاكر قلبك كبير، بس دلوقت عرفت إن عقلك أكبر.

فريد : بس خلي بالك، محمد مش سهل زي ما انت متصور، وإن كان محمد صغير ومش مخربش، إنما الست أمه دي قرشانه ووعيه تمام للي بيحصل خاصة بعد موت الشيخ حسن.

حمدان : دي مش بس والدته، باقي المصيبة الكبيرة.

حمودة : وإيه دي.

حمدان : الشيخ سعيد.

فريد : ودا ماله كمان بالموضوع.

حمدان : أنت مش عارف إن محمد فتح الورشة بتعته في البيت القديم بتاع الشيخ سعيد على سكة الزراعية القديمة، اللي في طريق المركز، وقريبة من الساقية إياها.

حمودة : ودا دخله إيه بينا.

حمدان : معناه إن الشيخ سعيد له دخل بالموضوع من قريب أو من بعيد، ومعنى إن محمد خد بيته يعمل فيه ورشة يبقى أكيد متوالسين مع بعض وفيها إنَّهْ، ويمكن كمان يكون شريكه، ولا تفسر حصول محمد ع المال منين.

فريد (وقد بدا عليه الانزعاج من سماع الخبر، وحاول أن يخفى ذلك بابتسامة صفراء سيبكم من الكلام ده وخلينا في المهم.

حمودة : وإيه المهم من وجهة نظرك.

فريد: إنك تروح لمحمد وتبارك له الورشة الجديدة، وتثبت له حسن النوايا، وكمان عشان تتفق معاه على الكلام اللي قلته من شوية.

حمودة : وانتو معايا مش لوحدي.

فريد: واحنا لزمتنا إيه.

حمودة: انتو كُبرات البلد، وحاجة زي دي متعديش عليكم، ثم الناس كلها عرفين إننا أصحاب، ومع بعض ليل نهار، حتى عشان خطري.

حمدان (وقد غمز لفريد بعينه): وماله، خلاص نروح سوا، بكرة نصلي العصر في الجامع الكبير ونروح نبارك له سوا.

حمودة : على خيرة الله.

حمدان : يعني كده احنا حبايب وصافي يا لبن.

حمودة : واحنا من أمْتنا اختلفنا؟ دااحنا طول عمرنا اخوات.

حمدان : يعني كده صافي يا معسل، معسل يا دخان.

فريد : أهو أنا كده أخدلي نفسين وأنا مستريح. مش كده يا حمودة.

حمودة : أيوا يا عم خلي السهرة تروق وتحلي زي زمان.

فريد : وقد أخذ يقهقة، وينادي على ابنته بشرى : فين الشاي يابنتي.

(١٠)

أنهى محمد طعام الغداء، الذي ضمَّه وأمه، وأخته أمينة، وخاله الأستاذ " شريف العبد " الذي يسكن البندر، والذي اتصل به محمد كي يحضر لتناول الغداء، ولإصلاح سوء التفاهم الذي حدث بين محمد ووالدته على إِثر قيامه بتأجير دكانة الشيخ سعيد.

والأستاذ شريف أخو الست عنايات أم محمد، موظف بمكتبة مديرية الأوقاف بالمركز، ولديه من الأبناء حسان وشاكر أحدهما يكبر محمد قليلا، والآخر في مثل سنه. وقد أكسبته طبيعة وظيفته العقل والفكر الحصيف، وقد علمه كثير الإطلاع ما لم تعلمه تجارب الزمن الطوال. وكثيرا ما كان محمد يزور خاله ويرغب في المُقام عنده من أجل حرية الإطلاع والقراءة، والاستمتاع بحياة العلم التي فقدها يوم أن ترك المدرسة.

غمز محمد بعينه إلى أمينة قائلا لها: أنا سأحمل اليوم عنك الطعام.

أمينة : وأنا ح عمل أحلى شاي لأحلى خال في الدنيا.

– نظر الأستاذ شريف إلى أخته عنايات وقد صبغها الحزن بصبغته ولم يترك عليها أي أثر لفرح : إيه يا أم محمد، شايلة من محمد ليه.

– وأنا حشيل منه ليه؟

– اللي يسمعك كده يقول إنكم حبايب؟ أُمال طول الأكل منطقتيش بكلمة، مع إنه عمال يكلمك ويضحَّك فيكِ. مالك فيه إيه؟

– محمد خلاص، خرج من طوعي، محمد كبر خلاص ومعدش بيسمع كلام حد.

– قصدك علشان خد الدكانة وعملها ورشة في بيت الشيخ سعيد. وإيه يعني، الراجل فكر بالعقل، دا مكان في أول البلد، وعلى الطريق، وقريب م المركز، ثم إن الراجل معيبوش حاجة، يعنى المكان من الناحية التجارية ممتاز.

– إنت مش عارف مين هو الشيخ سعيد؟

– لا يا ستي عارف كل حاجة، وعارف كمان إن اللي في دماغك دا كله أوهام في أوهام. قولي لي: لو إن الشيخ سعيد هو اللي قتل الشيخ حسن صحيح كان احتفظلك وولادك طول المدة اللي فاتت دي بالفلوس ورجعها لك تاني؟ ثم إزاي الراجل يساعد محمد ويؤجر له البيت بنصف الثمن؟ ثم انت نسيت الفلوس اللي كانت بتتساب على عتبة البيت كل حين ومِين، وانت عارفة كويس مين مصدرها، قولي لي، لو إن الشيخ سعيد هو الجاني كان يعمل كل ده ليه ؟

– عشان يداري على عمْلته، ويفلت بيها، ثم افرض إنه مقتلش بإيده؛ كان هو السبب الرئيسي في موته، منتش فاكر إنه هو اللي بعت في الليلة دي للشيخ حسن إنه تعبان، وقام الشيخ حسن في عز الليل وراحله وحصل اللي حصل.

– راحله ورجع نام، وبعدين قام يصلي الفجر وحصل اللي حصل واللي حصل، قدر ربنا ولابد أن نرضى بالأقدار، وانت يا أم محمد كل الناس بتتعلم منك، مش عوزك تكوني أقل مننا أبدا.

– زي م الموت قدر ربنا، القصاص م الجاني هو شرع ربنا، وأنا اتعلمت إن القاتل عبارة عن شجرة سنط مزروعة في الأرض كل يوم شوكها بيزيد ويفرَّع ويمتد، وأنا وإن لم أستطع إقلاعها، على الأقل أحمي ولادي منها.

– ولادك دوك كبروا، ولهم عقل ومنهج وطريقة تفكير في الحياة، ولازم همّا كمان يشتركوا في اللعبة، واللي ينجرح م السنط مرة لازم يفكر ألف مرة قبل ما يروح هناك تاني. وإن كان هناك شجرة سنط واحدة؛ فيه ألف شجرة ورد حلوة مفرَّعة.

ظل الحوار يدور على هذه الوتيرة بين عنايات وشاكر، وفي الغرفة الأخرى كان محمد وأمينة في انتظار ما يُسفر عنه هذا الحوار من نتيجة.

محمد : تفتكري إن خالك حيقدر يؤثر في والدتك ويقنعها بوجهه نظري.

أمينة : إنت عارف إن والدتك صعب قوي، وصعب كمان حد يقدر يقنعها غير خالك.

محمد : علشان كده أنا صممت إنه يجي يكلمها بنفسه.

أمينة : بس انت بصراحة سقت فيها ع الآخر، ومعنتش بتسمع

كلام حد، يعني هو ينفع تتفق مع الشيخ سعيد ع الدكانة بتعته من غير مشورة والدتك؟

محمد: أنت عارفة إن بيت الشيخ سعيد هو أنسب مكان: بيت واسع وكبير وفيه مساحة فاضية ممكن تنفع مخزن في المستقبل، وبعدين ع السكة الزراعية في طريق البندر، ثم كفاية إنه بيت الشيخ سعيد، إمام البلد والصاحب الحميم لوالدي الله يرحمه.

أمينة : مش يمكن علشان كده أمك رافضة الفكرة من أساسها.

محمد : مش فاهم.

أمينة: انت مش عارف إن والدتك بتكره الراجل ده كره العمى، ومش ملاحظ لما بتيجي سيرته وشها بيروح لون وييجي لون، وكان آخرها لما صليت معاه الجمعة إياها واتأخرت في الجامع مع برهومة، فاكر كان شكلها عامل إزاي.

محمد : بس تعرفي إن الموضوع ده أكيد فيه سر، وأنا لازم أعرفه.

أمينة : ما تسأل خالك يمكن يدلك.

محمد : إزاي الموضوع دا غاب عن دماغي، صحيح ما يجبها إلا..

أمينة : هييه، إحنا حنلبخ.

محمد: لا يا ستي حقك عليّ، بس يلا بينا بسرعة ندخل الشاي أصل زمان خالك على نار.

دخل محمد يحمل طبق من الهريسة التي تحبها والدته، ومن خلفه أمينة تحمل صينية الشاي.

أمينة أحلى شاي علشان أحلى خال في الدنيا.

محمد : وأحلى طبق هريسة لأحلى أم في الدنيا.

شريف : أيوا أيوا، خدونا في دوكة والألبندا بتاعتكم دي، سيبك م الأونطة دي يا عم محمد وتعالى هنا قلي انت مزعل الست والدتك ليه.

محمد : أنا أقدر يا خال، أمي حياتي ودنيتي، مش بس كده، هي مفتاح الجنة ورضا ربنا سبحانه في علاه.

شريف : علشان كده بتاخد بشورتها وبتسمع كلامها !

محمد : يا خال أنت أدرى الناس بقول النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته : ".. أنتم أعلم بشئون دنياكم "، وبقول الله تبارك وتعالى ".. فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون". وما أفهمه من الحديث والآية أنه يُرجع لأهل كل تخصص في كل فن من الفنون. وما فعلته كان بمشورة وتفكير أهل الصنعة، ولا انت عوزني أبدأ وبعد ما أبدأ أخسر وأضحَّك الناس عليّ، وبعدين يا خالي ليس اختلافي مع والدتي إلا من قبيل الاختلاف في الرأي، والخلاف في الرأي لا يفسد للود قضية كما يقولون، ثم خليك معايا، إديني أنت مبرر واحد علشان يخليني أغير رأيي وأسيب دكانة الشيخ سعيد، أسال والدتي عن السبب فلا تجيب. كل حاجة فيها أسرار، أنا كرهت الأسرار وخايف في يوم أكره كمان

معاها المعاني، إنما أريد حقائقا بلا أوهام، اقنعني تكسب عقلي ولك ود قلبي، وإذا لم تقنعني لك ود قلبي، وعقلي معك في خلاف دائم ومستمر. وبعدين أجبني يا خال اشمعنى رفضين بيت الشيخ سعيد ؟ علشان قريب من الساقية اللي مات فيها الشيخ حسن، وإيه يعني ؟ خايفين عليّ م الموت ؟ أنا لا أخاف الموت، وإن كان أبي قد قتل في حق، فأنعِم بها من قِتلة، وأنا لا أرضى بالعيش الدنييء، إن الخوف قيد في القلب يمنع الرِّجل أن تتحرك، وأن أبدا لن أقيد رجليّ بما لا يعتمل تياره في قلبي

شريف : انت يا ابني طالع زي أبوك بالضبط، صورة منه.

محمد : من شابه أباه فما ظلم.

أمينة : أمال أنا زي مين يا خال.

شريف: زي خالك طبعا ودي عوزه كلام.

أم محمد : يعني أنا قد خرجت من اللعبة.

محمد : أكيد لازم تطلعي منها، لأن اللعبة عرايس ومسرح قدام الجمهور، أما أنت يا ست الكل في إيدك كل الخيوط اللي بتحرك أعصاب ومخ ومشاعر العرايس والجمهور كمان، أنت الأساس واحنا الثمرة، ولولا الجذور ما كانت الثمار.

أمينة : يعني أمك شجرة، طيب شجرة إيه يا ترى ؟ أكيد جوز هند.

أم محمد (وقد بدا السرور على وجهها) : لأ، جوز عفاريت مغلبنِّي.

شريف: أيوا كده، اضحكي وفكيها، وسيبيها على الله، واللي من نصيبه شيء حيشوفه، واللي مقدره ربنا لازم يكون.

(١١)

حول لوح كبير من الخشب، وقف كلا من محمد وإبراهيم يمسك أحدهما بشاكوش والآخر بيده المسامير، كانا يضعان اللمسات النهائية على اللافتة التي ستوضع بعد قليل على باب الورشة، كان مكتوبا عليها " ورشة الفن الأصيل لصاحبها محمد حسن ". كانت اللافتة عبارة عن قطع صغيرة متناسقة ومعشوقة في بعضها البعض أشبة بفسيفساء القرون الوسطى ذات الطراز الأصيل، أما ألوانها فكانت تحفة فنية رائعة، ظل محمد يعمل فيها أسبوعا متواصلا، يحفر شكلها في بطن الخشب، كما يحفر المثّال تمثاله في قلب الصخر، ثم يعود فيركِّب ما انتزعه منها على شكل خشيبات صغيرة وكأنها تماثل ضُم بعضها إلى بعض فصنعت تلك اللوحة المعبرة بحق عن مضمون كائن وموجود.

محمد : إيه رأيك كده يا برهوم.

إبراهيم : فنان وأحلى فنان والله يا معلمي.

محمد : فنان ممكن، لكن معلم لأ، أنت هنا شريك معايا تقول محمد: ماشي، إنما معلم، لأ.

إبراهيم : معلش لسه لساني مخدش ع الوظيفة الجديدة، ما انت عارف إن لساني تقيل زي مخي ماهو تخين.

محمد : يا ريت لسانك يتقل ومخك يخف، تبقى عال العال.

إبراهيم: إيه يعني، عوزني أروح المورستان، ولما عقلي يخف مين اللي حيشغَّلك الورشة، آدي أول القصيدة.

محمد : لا أولها ولا آخرها، خلينا يا عم في الفن التقيل وبلاش الأصيل علشان نتقل مخك تاني ولا تزعل.

وبينما إبراهيم مغتاظ حبتين من محمد، ومحمد يضحك من الموقف والحوار الذي تم بطريق غير مقصود، دخل عليهما الشيخ سعيد.

الشيخ سعيد : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا رجالة.

محمد : الشيخ سعيد.. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

سعيد : إيه الأخبار يا محمد يا ابني، حنبدأ شغل إمتى.

محمد : إحنا بدأنا والحمد لله، تعالى اتفرج كده وقولي إيه رأيك.

الشيخ وقد أمسك اللافتة وأخذ يقرأها: ورشة الفن الأصيل.. واشمعنا الفن الأصيل؟ ليه متسمهاش ورشة الإيمان، أو التقوى؟.. حاجة من المعاني الجميلة دي. وبعدين أبوك الشيخ حسن كان نفسه يسميها " ورشة الإيمان ".

محمد : ومن قال أن الفن مخالف للإيمان؟ إن كلاهما وجهان لعملة واحدة هي الفطرة السليمة، وحيث ينبع الإيمان من الفطرة وهي أرضه، يخرج الفن منها وهي منبته، وإن كان لكيهما معنىً مختلف؛ إلا أن كلاهما

يؤدي إلى نفس الغاية وهي العبودية الله تعالى عن تذوق ومعرفة، فلا إيمان بلا معرفة، ولا فن بغير تذوق، وإذا طُعِّم الإيمان بالتذوق، والفن بأصيل المعرفة كُتب لصاحبه الخلود في الدنيا بجميل الذكر، والخلود في الآخرة بحسن المثوبة والأجر.

إبراهيم وقد أقحم نفسه في الحوار دون فهم: وليه متسمهاش باسم والدك علشان تبقى (ورشة الشيخ حسن).

محمد : أحسب أن والدي لو كان حيا لسُر باختياري، لأنه كما يذم الدين المقلدين وينعي عليهم حالهم، فإن الفن كذلك؛ عدوه التقليد، فكل ما ينمو خارج النفس وليس أصيلا فيها أو نابعا حقيقيا منها هو بدع في الفن، وضلالة في الدين. وإن كان أبي قد آثر أن يقدم الجذر على الثمرة فيسميها الإيمان، فإني أوثر الثمرة فأسميها الفن، ولكلٍ وجهةٌ هو موليها.

الشيخ سعيد : أتحسب أن كلمة الأصيل أضافت للفن معنى، وهل لو قلت الفن الجميل لكان أولى.

محمد: أساس الفن التذوق، " فن بلا تذوق ثمر بلا طعم "، ماذا يفيد الفن إن لم تتذوقه الروح، ويحسه القلب، ويسمو بالجوارح، ولأن الفن والدين يؤديان كلاهما لغاية واحدة، فليس شرط الفن حتى يحقق غايته الجمال؛ بل الأصالة.

فالجمال وحده معيار ناقص، فإذا أضفنا للجمال الأصالة فيه، بدا لنا بعض القبح جمال، وبعض الجمال قبح، وظهر لنا عيانا بيانا أن بعض

النقص كمال، وكل الكمال نقص.. وتلك حقيقة لا يفهمها من يبحث عن الجمال وحده، بل من يبحث عن الأصالة أولا.

أنهى محمد كلامه، وقد بدا على الشيخ سعيد أنه في حالة سرحان أقرب ما تكون كلحظات الوجد الصوفي بعد تذوق قصيدة رائعة من قصائد إمام المحبين وشاعرهم عمر ابن الفارض.

محمد : خير يا عم الشيخ سعيد.

الشيخ سعيد (وقد بدأ يفيق) : إيه يا محمد يا ابني دا انت بحر كبير، الله يرحمه والدك، هاك الشبل من ذاك الأسد.

برهومة : وهو يواصل العمل في اللافتة، وهو يتابع الحوار بلا اهتمام : بالظبط زي ما بقولوا في الأفلام ابن الوز عوام.

نظر إليه الشيخ نظرة مريبة، بينما يراح محمد يهدئ من روع الشيخ بابتسامة خفيفة : لا عليك يا عم الشيخ، دا إبراهيم صحبي وشريكي دايما بيهزر.

الشيخ سعيد وقد حملق فيه، يريد أن يتعرف على هويته: مش انت الواد برهومة ابن المرحوم سعيد أبو أحمد ؟

محمد : هو كده بالظبط.

الشيخ سعيد: الله يرحمه والدك، كان كده برده، دمه خفيف وعلى نياته واللي ف قلبه على لسانه

لم يكد الشيخ سعيد ينهي كلماته، حتى ترامى إلى أسماعهم صوت المعلم حمودة قادما من بعيد ينادي : يا معلم محمد، يا محمد يا ابني، انت فين؟

هرع محمد نحو الباب في خطى سريعة : اتفضل يا معلم حمودة اتفضل، يا أهلا وسهلا يا أهلا وسهلا، الدنيا نورت.

حمودة وقد دخل الورشة ومعه الحاج فريد، والمعلم حمدان: ألف ألف مبروك يا محمد يا ابني.

فريد : بشرة خير يا أبو حميد، زين ما فعلت.

حمدان : مبارك يا أصغر معلم في الجيهة.

محمد وقد أدهشة الشخصين خلف المعلم حمودة فارتبك، ثم أسرع بتفادي الموقف سريعا.. يا أهلا يا أهلا، الورشة نورت، دحنا نبلّ الشربات ونوزع الساقع، يا برهومة يا برهومة أوام يلا عوزين الساقع علطول متتأخرش.

حمدان : ملوش لازمة يا محمد يا ابني، دا واجب علينا.

فريد : كريم زي والدك الله يرحمه، كان كله كرم.

لم يكد فريد يكمل كلمته، حتى وقع نظره على الشيخ سعيد الذي كان بالداخل في زاوية من الورشة، فما أن رآه حتى تسمر مكانه وتغير لونه من المفاجأة.

حمودة : يا أهلا يا أهلا بمولانا الشيخ سعيد، مش تقول يا محمد إن الشيخ معاك يا راجل كنا نرحب بيه.

حمدان وقد مد يده يصافحه.. وأنا بقول النور دا كله منين.

الشيخ سعيد، وقد وجه نظره إليهما، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يا أهلا بالناس الأصول. وقد وجه نظره إلى الحاج فريد: إزيك يا حاج فريد.

فريد : وقد حاول أن يتأقلم : أهلا وسهلا يا سِيد الناس.

الشيخ : أنا سمعتك بتمدح ف الشيخ حسن.

فريد : أُمال.. هوا كان فيه كرم زي كرم الشيخ حسن.

الشيخ : بقى يا راجل مش عيب تقابل كرمه باللي انت عملته فيه ده.

(تسمر فريد وحمدان مكانهما، ونظر أحدهما إلى الآخر في ذهول)

حمودة : وإيه اللي عمله الحاج فريد يا شيخ سعيد؟

الشيخ : سايب الجامع الكبير اللي بناه الشيخ حسن، ورايح يصلي في الزاوية اللي ع الترعة. كام سنة ومفتكرتش يا راجل تخزي العين بجمعة واحدة ترد بيها بعض من جمايل الشيخ بصلاتك في مسجده.

فريد، وقد التقط أنفاسه واسترد بعض وعيه: انت عارف إن العضمة كبرت والزاوية جنب البيت، والواحد بيتعب على ما بيروح الجامع الكبير، وبعدين يا مولانا أنا لسة مصلي معاك الجمعة اللي فاتت

أنا والمعلم حمدان.

الشيخ : أيوا جمعة زكاة الثمار في موسم الحصاد.

محمد : قصدك خطبة الربا والمال الحرام.

حمدان : هو فيه ربا في بلدنا، بلدنا ناسها كلهم طيبين وميعرفوش الحرام.

الشيخ : لما هما طيبين كلهم، دم الشيخ حسن في رقبة مين ؟!

فريد : مش التحقيقات قالت إن الحادث قضاء وقدر، هو فيه حد كان بيكره الشيخ حسن، دا كان راجل يتاقل بالدهب.

حمودة : الله يرحمه.

حمدان : دا ماضي عدى وانتهى من زمان.

الشيخ : الماضي لا ينتهي بانقضاء السنين؛ بل بانتهاء الآجال، ويوم ينتهي أجل فلان يبدأ ماضيه، إلا الذين خُلِّدت ذكراهم ولا يموتون بل هم في ذاكرة الحاضر والمستقبل، والشيخ حسن واحد من هؤلاء، غايب وذكره حاضر.. مش كده يا محمد يا ابني (قالها وهو يربت على كتفه).

محمد : أيوا صحيح يا عم الشيخ سعيد، تعرف إن أنا حاسس إنه عايش جوايا، وإن موته كأنه إمبارح بس، وأنا فاكرها كأنها لسة النهاردة.. قام يصلي الفجر واتشعلقت فيه زي العيال الصغيرة، مرديش يسبني ولا حتى يصحي الست والدتي، خدني معاه وكان

الجو برد والدنيا شبورة ومحدش شايف قدامه، ولما صلينا، خدني وراح يتمشى قريب من الساقية ولما قربنا عليها سمع والدي صوت بينادي عليه، إلحقني يا شيخ حسن، إلحقوني يا ناس، سبني وطلع يجري يغيث الملهوف، وبعد شوية سمعت صوته بيصرخ بأعلى ما فيه، حد ينجدني، إلحقوني باموت.. طلعت أجري زي المجنون مش عارف أعمل أيه، مش شايفه بس سامع صوته، أنادي عليه ويكلمني، لحد محصل اللي حصل.

الشيخ سعيد: أبوك نال أجر الشهادة، وقد كان يغيث الملهوف، والحمد لله كل الناس كانت بتحبه وبتترحم لحد دلوقت عليه، ودا من علامات حسن الخاتمة يا محمد يا ابني.

حمودة وقد غمز بعينه إلى الشيخ سعيد، يطالبه بتغير الموضوع الذي وضح تأثيره على محمد : إيه يا جماعة، احنا جيين نبارك ونهني، ولا نندب ونبكي يا شيخ سعيد.

الشيخ : أيوا يا معلم حمودة، معلش يا سيدي جيتم ع الجرح، وذكرتمونا بالذي مضي.

حمدان : احنا ولاد النهاردة.

فريد : وادي المستقبل كله قدامك.

حمودة : وآدي أول المستقبل بتاعك، بُشرة خير يا سي محمد، آدي أول طلبية، شغل إنما إيه يشغلك شهر قدام.

برهومه (بعد أن أحضر المشاريب) : والله يا معلم.

حمودة: أيوا ياسي برهومة، تلت غرف نوم مرة واحدة، وآدي العربون خمسمائة جنيه، ومعاكوا شهر.. تقدر يا محمد ولا...!!

الشيخ سعيد: أكيد طبعا قدها وقدود، ربنا يبارك لك يا معلم حمودة، آهو المعلم حمودة فتحلك الباب يا محمد.

حمدان : بس أوعى تكسره وانت داخل.

برهومة : ليه هو محمد هيركليس ولا إيه، لا مؤاخذة يا شيخ سعيد !

الشيخ : لا يا سيدي خد راحتك النهاردة وقول زي ما انت عايز، النهاردة عيد.

الحاج فريد : طيب نستأذن احنا وألف مبروك يآبو حميد.

محمد : ماهو لسه بدري، انتو مستعجلين ليه.

حمدان : معلش أنا والحاج فريد ريحين البندر في مشوار سوا.

الشيخ سعيد : بألف سلامة.

حمودة : أشوفكو الليلة على خير .

انصرف فريد وتبعه حمدان، وقد بدا عليهما الغضب والحنق.

فريد : الشيخ سعيد وقَّع قلبي.

حمدان : أنا قلت السر انكشف خلاص.

فريد : يا أخي تف من بقك.

حمدان : الراجل دة مش سهل وطول عمره بيكرهنا، وأنا حاسس منه ريحة غدر

فريد : لو كان يقدر يعمل حاجة كان عملها من زمان، المشكلة مش فيه، المشكلة في محمد.

حمدان : اشمعنى.

فريد : الواد لسة فاكر الحكاية كأنها النهاردة، لسة محفورة في دماغه، وإن كان فاكر لحد النهاردة إنها حادثة قضاء وقدر، بكرة لما حد يلعب في دماغة ممكن يعمل لنا مشاكل.

حمدان : زي إيه يعني.

فريد : يقلب في الدفاتر القديمة، ويكشف المستور.

حمدان : المستور ده ماحدش يعرفه إلا أنا وانت.

فريد : يا أخي الموضوع ده كل ما أقول خلاص اتنسى ومات، ما أعرفش يطلع لنا ألف عفريت ينكش فيه من جديد.

حمدان : وسيظل موجود طول م الساقية موجودة واسمها على اسمه.

فريد : أما أنا محضر لها حتت فكرة، إنما إيه.

حمدان : وإيه الفكرة دي يا إبليس زمانك؟

فريد : دا مش وقتها دلوقت، بعدين نتكلم على رواقة.

(١٢)

يا ليل ليه نجمك فوق الزمن طالع
والحق له يوم يظهر زي ما القمر طالع
مين يا ناس يقول الحق ميخفش
م الظلم مهما الظلم كان ضالع

كانت هذه هي كلمات إنصاف بنت الحاج فريد، ترددها وهي تسير في طرقات القرية.

كانت إنصاف فتاة مخبولة، ظل يسيل لعابها حتى فترات قريبة، كانت كثيرا ما تتمتم بكلمات غير مفهومه، وأحيانا بكلمات هي من دروب الحكمة.

كان الحاج فريد يكرهها ويكره وجودها في القرية، من أجل هذا تركها لسنوات مع والدتها في البندر، حتى توفيت الأم فكان لابد له من الإتيان بها إلى القرية لترافقه، من أجل هذا خفيت عليها طرقات القرية، وضاعت عنها معالمها، فكثيرا ما كانت تتوه ويأتون بها من قرى مجاورة، حتى مل أبوها الأمر وفوض فيها أمره إلى الله.

..كانت إنصاف لعنته في الحياة، وكان صديقَهُ حمدان دائما ما يقول

له : دي عملك السيئ يا حاج فريد، ربنا بيجازيك بعملك. ولكنه كان يرد عليه بنفس منطقه: نص العمى ولا العمى كله (إشارة إلى أن حمدان لم ينجب من الأساس).

***

كانت هذه الليلة حالكة السواد، وثوب الضباب يلف كل شيء، وكانت إنصاف تسير في طريقها على غير هدى وهي تردد هذه الكلمات، خرجت من القرية اتجهت إلى طريق السكة الزراعية ومنه إلى الساقية المهجورة، والتي يسمونها ساقية الشيخ حسن لمقتله فيها، كانت إنصاف تسير حينا وتجلس حينا، فإذا غلبها النوم نامت في أي مكان.

وصلت إنصاف إلى الساقية ومازال الجو ضبابي معتم ولم يتكشف منه شيء، تعثرت قدميها في حجارة على الأرض فوقعت، فاصطدم رأسها بحديد الساقية، ومنه إلى بئرها فماتت.

كان الطريق قلما يسلكه أحد إلا لتشيع جنازة حيث أنه في سكة المقابر، أو ممن أراضيهم بجوار الساقية.

استيقظ محمد من نومه مبكرا كعادته، صلى الفجر، ثم ذهب إلى الورشة، كان يوم جمعة، يوم أجازته من الورشة، لكنه كان يحب أن يذهب إليها ساعات بسيطة حتى الجمعة ثم يرجع ليقضي بقية يومه مع أمه وأخته، كان يحب الذهاب في هذه الساعة وفي هذا الوقت ليختلي بنفسه يبتكر فورمات جديدة وأشكال جديدة يصممها ثم يدفع بها إلى الزباين، وكان من عادته أن يُعرِّج على المقابر، يخلو بنفسه هناك لحظات

لتصفو بذكر الموت نفسه، ويذكر خاتمته ونهايته، ذهب محمد وفي طريق عودته طوَّف ببصره من بعيد على الساقية فراعه أمرا أفزعه، كان شيئا من ثياب معلق بحديد الساقية بطريقة غريبة لم يألفها قبل. لم يهتم في بداية الأمر فلما اقترب منها أدرك أن في الأمر شيء، فذهب يستطلع حقيقة الموقف، فوجد أن بعضا من ملابس إنصاف قد تعلق بحديد الساقية بينما هي ملقاة في قعرها. فزع محمد من الموقف، ولم يتمالك نفسه، أخذته رعدة شديدة، ولم تقوى رجليه على حمله فجلس متسمرا في مكانه يبكي، مرت عشرات من الصور في ذهنه، وكاد أن يغيب عن الوعي.

مر أحد الفلاحين وهو يمتطي حماره في طريقه إلى أرضه، ألقى السلام فلم يرد محمد، نظر إليه فوجده يبكي، أسرع إليه، خير يا محمد يا ابني فيه إيه، لم يستطع الرد. أشار إلى البئر. نظر الرجل إليه، اكتشف الأمر : لا إله إلا الله، ماتت البنت الطيبة ولا حول ولا قوة إلا بالله، خليك هنا يا محمد يا ابني على ما أبلغ أهل البلد بسرعة وآجي.

ذهب الرجل مسرعا كالريح، أبلغ البلد الخبر، أقبل الناس فرادى وجماعات، ومعهم الحاج فريد الذي صحى من نومه مفزوعا على الخبر المشئوم، لم يكن يعرف هل يحزن أم يفرح، لم يكن ليحزنه موتها بقدر ما يؤلمه المكان الذي ماتت فيه، كان يعلم بأنه القصاص وأنها يد القدر عاقبته بمثل ما عاقب به الشيخ حسن.

توافد الناس على المكان، حملوا جثتها، ذهبوا بها إلى المسجد، صلوا

عليها يتقدمهم الشيخ سعيد، شيعوا جنازتها.. حملوها إلى المستقر الأخير، ومحمد سائر معهم، وحاله غير حاله، يتساءل في نفسه: ما الذي جرى لي؟ هل هو الخوف من الموت ؟ أم هو من أثر المفاجأة ؟ أم أنه تأثير المكان والذكرى؟.. إن بركانا ما هزني، لقد تفجرت أعماقي وارتعد ظاهري، وانفلت زمام التحكم في نفسي.. لماذا ؟ أمن حادثة ؟ كنت أحسبني قويا بما يكفي لإزالة عوالم راسخة من الظلم، ثابتا بما يكفي لمقاومة أعاصير من الريح.. فما بالني هكذا أهتز كعود الذرة الأجوف الذي لا جذر له، آه آه إنه الموت لا محالة، وإنها ذكرى النهاية لا غير، تعجز عن وصفها الكلمات، وتتوه فيها الأوصاف والعبارات.

كانت هكذا تمور بالأفكار والتصورات نفسه، في المسافة التي يقطعونها من المسجد الكبير حتى المقابر، فلما وصلوا المقبرة، كاد محمد أن يسقط وهو على شفير قبرها الذي دفنت فيه. ولم يتمالك نفسه من البكاء، ولم يخفف عنه إلا يدا تربت على كتفه في حنان، وصوتا يناشده الصبر والسلوى في يقين ؛ هو صوت الشيخ سعيد ويده.

انصرف المشيعون جميعا، وليس لهم حديث إلا هذه الساقية المشئومة التي قتلت اثنين؛ إنصاف ومن قبلها الشيخ حسن. وانصرف معهم أيضا محمد يمسك بإحدى يديه برهومة وباليد الأخرى الشيخ سعيد.

ولم يتأخر عند المقابر غير الحاج فريد وصاحبه حمدان، جثا فريد على قدميه ولم يستطع الوقوف وقدا بدا واجما حزينا، هزيلا متعبا.

حمدان : البقاء لله يا حاج فريد، معلش ياخويا: أمر ربنا، قدر

ومكتوب، ربنا يعوضك خير.

فريد، وقد بدا شاردا لم يسمع من كلماته شيء، بل أخذ يتمتم في نفسه: لست أعرف هل أفرح بموتها، أم أحزن.. كنت أنتظر موتها بفارغ الصبر! كنت أنتظره كل ساعة، آه كانت حياتها مشكلتي في الحياة، ثم صار موتها مشكلتي.. آه لو كانت ماتت في حتة تانية كانت بردت ناري، اشمعني الساقية بس يا ربي، وبعدين محمد تاني، ابن الشيخ حسن هو اللي يعرف بموتها، ويا عالم هل له دخل بموتها ولا لأ، مش يمكن بينتقم لموت أبوه في شخص بنتي.. أمّا لو كان له دخل، دنا أشرب من دمه، زي ما شربت من دم أبوه.

حمدان وقد أمسك بكتفي فريد وأخذ يهزه هزا : إيه يا حاج فريد، انت رحت فين يا راجل، إيه يا عم ما تشد حيلك كده، أنا مكنتش فاكرك بتجزع م الموت كده، قول الحمد لله.

فريد : الموت.. ما انت عارف إني قلبي ميت من زمان.. بس لو كانت تموت في حتة تانية، كان دمي برد، إنما تموت في الساقية، وتموت دلوقت ليه، دنا كنت خلاص.. كلها أسبوع واحد بس وكنت أردمها علشان الناس تنسى بقى حكاية الشيخ حسن ونستريحوا، تقوم بنتي تموت فيها النهاردة، أهو الناس كده لا حينسوا حكاية الشيخ حسن ولا حكايتي.

حمدان وقد أمسك بيد فريد يجذبه ليخرجه من حالة الهذيان التي تناوبته : قوم بس يا حاج فريد، قوم معايا، يلا بينا ع البيت، يلا بس وربك يدبرها من عنده، يلا أحسن كلها ساعة والناس تيجي البيت

تعزيك.

قام فريد يسنده حمدان وقد أخذا في طريقهما إلى البيت، ومازال فريد يسيطر على ذهنه فكرة أن محمد يعد السبب في موت إبنته.

(١٣)

كان محمد يعلم أن للشيخ سعيد فتاة في مثل سنه تقريبا، كان يسمع الأخبار عنها، يقولون أنها فتاة جميلة لا توجد في القرية من هي أجمل منها، لم يكن محمد قد رآها قبل، لكنه كثيرا ما يسمع عنها، كان برهومة هو مركز الأخبار المتنقل بالنسبة له، مغرم بتسمع الأخبار ونقلها، يعرف حوامل البلدة ومتى يلدن، من تزوج وكم أنجب ذكورا وإناثا، من ورث عن والده وكم ورث.. إلى غيرها من أخبار القرية، بل ربما يأتيه بما يحدث من أخبار للقرى المجاورة.

حدثه إبراهيم أنه رآها ذات مرة، بل ما زال يذكر بعضا من وصفه إياها : دي قمر يا أبو حميد، قمر ١٤، أيوا والله قمر، وبعدين إيه : جمال وأصل.. كفاية انها بنت الشيخ سعيد، يا بخت اللي حيتجوزها تبقى أمه دعياله.

وما زال يذكر حديث أخته أمينة عنها وهي تنعتها له بكل خير. كانت تكبرها بسنوات يسيرة، أدركتها في سنة دراسية واحدة.. كانت أمينة في السنة الأولى من المرحلة الثانوية بينما كانت هي في آخر سنة. لم تكمل فاطمة تعليمها فلقد اكتفى الشيخ بهذه المرحلة التعيمية فقط، ومن يومها وهي لا تغادر منزل أبيها إلا لضرورة.

***

ذهب محمد كعادته مبكرا إلى مقر ورشته الجديد في بيت الشيخ سعيد، وكان قد نسي المفتاح، وقف محمد متحيرا أمام باب ورشته: لقد ظللت أحمل مفتاح ورشة المعلم حمودة لسنوات طويلة ولم يحدث مرة أن نسيته، فكيف لي أن أنسى مفتاح ورشتي؟ ألان الوضع جديد؟ أم أن أحداث موت إنصاف قد شغل عقلي فأنسانيه؟ ربما هو السبب؟ إذن ما العمل هل أرجع إلى البيت ثانية لإحضاره، نعم ليس هناك خيار آخر. هَم محمد بتنفيذ ذلك ولما بدأ في تغيير مسار خطوه، إذا به يتذكر شيئا، إن هناك نسخة أخرى من المفاتيح لدى الشيخ سعَيد. إذن لا مانع من أن أطلبها منه، إن الرجل يصلي الفجر، وأكيد هو صاحي، سأطلبها منه. تقدم محمد في الخلف من الورشة حيث بيت الشيخ، فتح باب الجنينه ثم تقدم بإزاء الباب فطرقه طرقات وادعة، ثم تنحى جانبا من الباب.

– مين ؟

– محمد ابن الشيخ حسن.

– خير حضرتك عاوز حاجة.

– الشيخ سعيد موجود.

– هو صلى الفجر ومريح شوية، ثواني أصحيه لك.

– لأ ملوش لازمه تصحيه، هو أنا بس نسيت مفاتيح الورشة في البيت وكنت فاكره صاحي فقلت آخدهم منه بدل ما أضيع وقت في

الذهاب والإياب، لكن طالما نايم، أخطف رِجلي بسرعة وأجيبهم م البيت.

– المفاتيح موجودة، أنا عارفة مكانهم، ثواني أجيبهم لحضرتك.

ذهبت مسرعة تحضر المفاتيح من مكانها، لم يكن محمد قد رآها، وربما تملكه الفضول لينظر إليها، ولكن الخجل يمنعه، ولم يكن قد سمع صوتها قط، وها هو اليوم قد سمعه، إن صوتها غريب، فيه شيء ما قد جذبه وحرك فيه منطقه لم يلمسها أحد من قبل. ما الذي جذبه في صوتها لا يعرف؟ ما هذه المنطقة التي اكتشفها في نفسه الساعة ؟ لا يدري. وبينما هو غارق في التساؤل، يحاول أن يحلل ما جري، إذ جاءت إليه، فتحت الباب فوجئ بها أمامه هكذا بلا مقدمات: اتفضل المفتاح، يا أستاذ محمد.

رفع بصره قليلا، أبصرها، التقط المفتاح من يدها، ثم هَم بالانصراف ووجهه للخارج.

– على فكرة الشيخ سعيد صحي وبيقولك إنه حييجي يشرب معاك الشاي، أدار محمد وجهه إليها عن قصد، نظر إليها نظرة واحدةً بتأمل ثم قال: يشرف. ثم ألقى السلام وانصرف.

كانت فاطمة تسمع عن محمد أضعاف أضعاف ما يسمعه محمد عنها، كانت تقريبا تعلم عنه كل شيء، عن أبيه الشيخ حسن، وكيف تزوج من أمه، وعن الشيخ حسن في صباه. كان أبوها يجلس إليها تقريبا كل مساء، يقص عليها من حكاياته، وحكايات صديق عمره الشيخ حسن،

وكيف أنهما ترعرعا سويا، وسافرا إلى القاهرة سويا للحصول على عالمية الأزهر، وكيف أن الشيخ حسن كان أشطر منه وسبقه بسنوات بينما كان هو متعثر في دراسته، ولولا الشيخ حسن لترك التعليم إلى الأبد، وكيف أنهما جاهدا سويا في حرب فلسطين، وكان يقص عليها بعضا من بطولات الشيخ حسن النادرة في قتال اليهود، وكيف أنقذه ذات يوم إذ أصيبت ساقه بقذيفة، فحمله الشيخ حسن لمسافة طويلة حتى كانت نجاته، وكيف أن الشيخ حسن نفسه أصيب بعدها بشظية في ساقه وكتفه فما كان من الشيخ سعيد إلا أن ضمده وعالجه وهو يداعبه بقوله: ساق بساق والكتف زيادة. عشرات الحكايات يحكيها الشيخ سعيد، كانت فاطمة تخرج منها بنتيجة واحدة، هو ذلك الحب الذي يكاد يصل إلي حد التقديس، والذي يكنه الشيخ سعيد لصديق عمره الشيخ حسن ولكل من يتصل به.وكانت كثيرا ما تسمع من أبيها تنقلاته بحديثه من الرجل إلى ولده: محمد دا راجل زي أبوه، شاب مفيش ف البلد زيه، خلق ودين، وعلم وكياسة. كانت أحيانا ما تنام على ذكر أبيها للشيخ حسن، وتصحو على ذكره لمحمد ولده.

كل هذا جعل فاطمة تتعلق بمحمد قبل أن تراه. شعرت نحوه بألفه غريبة، وراحة لذكره غير معهودة، بل كانت تود لو تراه. رأته مرة واحدة حين جاء يتفق مع الشيخ سعيد بشأن الورشة ويعاينها، لكنها لم تتأمل شكله، ولم تتعرف ملامحه، سمعت صوته فحسب.

ورأته مرة أخرى من فوق السطوح وهو قادم إلى الورشة، ومرة

وهو يغادرها وفي المرتين كانت خيوطا من ضباب أو ظلام تمنعها من تأمل ملامحه؛ إذ أنه لا يأتي الورشة إلا في البكور، ولا يغادرها إلا وقت الأصيل.

لكنه الآن هنا.. هنا في البيت، واقف أمام الباب، ينتظرني أعطه المفتاح، لم تترد لحظة في الخروج إليه؛ وإلا كانت قذفت إليه بالمفتاح من خلف الباب، ولم تترد لحظة في الوقوف قبالته؛ وإلا كانت أعطته إياه دون مواجهته والوقوف بإزائه. كسرت حاجز الخجل، نظرت إليه عن قرب، نظرة تأمل واستكشاف يتستر خلفها موج هادر من الذكريات والتصورات.. تلاقت عيناهما للحظات، أطرق محمد خجلا، ثم أخذ المفتاح وانصرف.

ذهب محمد إلى الورشة، وشعور ما بداخله يسري، ثم يزيد ويزيد، ثم يستمر سريانه، ثم يفيض ويفيض. ما هذا الذي يحدث لي؟ إن رجفة في أعصابي، إن روحا في دمي، إن سرا في كياني، إن خاطرا يمتزج بقلبي، إن وحيا يسامر عقلي، إن هاجسا يتملك نفسي. إن معنىً يخطر بفؤادي، ترى هل هي فاطمة بنت الشيخ سعيد ؟ من غيرها إذا يكون؟

هل هي (ملاك) أمينة أختي، و(قمر) إبراهيم صاحبي، هل هي ذلك الوصف؟

فتح محمد الورشة، جلس على كرسيه، أخذ يسرح به خياله، ما هذا الذي يجري بنفسي؟ إنني الذي أدعي معرفة بها، فمالي لا أستطيع تفسير ما يعتمل بداخلها ويسري خفية فيها؟ إن داخلا قد دخل ولا

أعرفه، وسالكا قد ولج ولا أميِّزه، ترى ماذا يكون؟ هل هو الحب الذي يقولون؟ هل هو الهوى الذي يخبرون؟ أتلك لذته؟ وهل هذه هي رعدته وذاك تياره؟ كم أن الحب - لو كان هو الحب – لذيذ، يلملم شتات القلب، ويؤنس وحشة الفؤاد، ويمزح المرء بروحه فيصير كالروح روح.

دخل برهومه الورشة، ومحمد على حالته، مستغرق في التفكير جالس على غير عادته.

– السلام عليكم يا معلم محمد. لم ينتبه إليه. صباح الخير يا معْلَمة. لم يرد. أخذ يضرب كفا بكف، بقول صباح الخير.

– محمد وقد انتبه إليه : برهومه، صباح الخير، إزيك.

– مالك يا محمد، انت تعبان ولا حاجة.

– مش عارف أقولك إيه !!

– تقولي أنت تعبان ولا لأ، قول يا عم انت ساكت ليه.

– مش عارف، أنا جيت الصبح نسيت المفتاح، رحت أجيبه من عند الشيخ سعيد علشان متأخرش، فاطمة بنته ادتهولي، وجيت على طول ومن ساعتها وأنا حاسس بحاجة غريبة مش عارف هيا إيه.

– الحب يا صاحبي، الحب يا بيه، الحب من أول مرة يا سعادة الباشا، وهي دي حاجة عوزة مفهومية.

نظر محمد إليه نظرة إرتياب، ولكنه آثر الصمت دون الكلام.. إن الحب - حب النساء - كلمة كان محمد قد حذفها من قاموسه من زمن ليحل محلها كلمات مثل: الواجب، العمل، التضحية، التأمل، التفكر.. وغيرها الكثير، أما الحب فلم يشمله قاموسه الكبير للمعاني.

برهومة : أيوا يا عم شفت القمر. هييه لقيته زي ما قلتلك ؟

سكت محمد، إنه لم ينظر إلى وجهها كي يستطلع ما فيه من جمال، ولكن ليستنطق ما فيه من معنى. ولم ينظر إليها بعينه، وإنما تأملها بقلبه. فكيف يطلب من العين أن تصف له ما لم تره؟ وأني له أن يسألها عما لم تعلمه؟

قطع الشيخ سعيد حوارهما بصوته الجهوري المعتاد وهو ينادي: محمد، يا معلم محمد.

- اتفضل يا شيخ سعيد، اتفضل.

دخل الشيخ، ألقى السلام، جلس، أنا جيت أشرب معاكم الشاي.

برهوم : أحلى شاي عشانك يا مولانا، يا سلام لو تنورنا كده كل يوم، أهو حتى نوفر الكهربا.

محمد : معلش يا شيخ سعيد، برهومة كدة على طول بيحب الهزار.

الشيخ : براحته، أنا حتى اتعودت عليه، ما هو زي ابني، أنا لو ابني عاش كان زمانه قده في السن.

محمد : وانت كان عندك ابن.

الشيخ :.. ومات في سن سنتين، أنا حتى مشفتوش، كنت أنا وأبوك في حرب ٤٨، وجيت لقيته قابل وش كريم.. يلا، الله يرحمه، ويبارك في فاطمة، أهي عندي بالدنيا.

محمد : ربنا يبارك لك فيها.

الشيخ : والله يا محمد يا ابني، هي اللي ملية عليّ البيت، ومن غيرها كانت الدنيا تبقى لها طعم تاني. ولولاها عليّ كان زماني سيبت البلد بعد موت الشيخ حسن.

محمد : دا اسمه كلام، أُمال لما تسيب البلد مين غيرك يسكنها، هي البلد لها سعر إلا بيك.

الشيخ : الله يكرمك يا محمد يا ابني.

دخل إبراهيم بأكواب الشاي على الصينية وقد أعده على نار الفحم على الكانون خارج الورشة.. اتفضلوا الشاي.

تناولوا جميعا الشاي، اطمئن الشيخ على سير العمل ثم قام فانصرف، وبقي إبراهيم ومحمد يعملان في جِد، وإن كان اليوم لا يخلو من لحظات يغفو فيها محمد على ذكرى فاطمةَ.

(١٤)

عاد محمد إلي بيته في المساء بعد يوم حافل بالعمل آخره، غامر بالسعادة أوله. وفي رحلته للعودة لم ينس محمد تذكر ذلك اللقاء الخاطف المؤثر الذي ضمه " والملاك "، إنه ما زال يذكر صورتها وكأنها انطبعت في مرآة قلبه، وفي عميق فؤاده، ورغم أنه انصرف مسرعا في خجل إلا أنه تمنى لو رآها مرة أخرى، ساعتها سيطيل النظر إليها ليتأملها أكثر وأكثر، ويحتسي من جمالها المعبر أكثر وأكثر.

وصل محمد البيت، ولم يدر أنه بإزائه، كانت أمينة تقف أمام البيت في انتظار والدتها التي ذهبت تحضر شيئا من الجيران ولم تعد بعد. دخل محمد، رأت أخته عليه علامات الشرود والتوهان، لم يمازحها كعادته.

- مالك يا محمد.

- مفيش حاجة، دا إرهاق شغل، أمك فين؟

- عند الجيران.

- طيب أنا داخل أريح شوية، على ما تيجي.

- دخل محمد حجرته، تمدد على سريره، وضع كلتا يديه تحت رأسه، وأخذ ينظر بعينيه باتجاه السقف.

أمينة: إرهاق شغل، هو محمد من امته بيشتكي م الشغل، لا أكيد الموضوع فيه حاجة غلط، دي مش طبيعة محمد، دا أخويا وأنا عرفاه. لم تهمله أمينة، صنعت كوبا ساخنا من الشاي ثم دخلت إليه في دهاء الصغار تريد أن تستكشف حقيقة الأمر، أحلى كوباية شاي علشان أحلى أخ في الدنيا. تناول محمد كوب الشاي، ثم سألها في فتور: إيه أخبار المدرسة النهاردة.

– تمام تمام، بس انت اللي مش تمام، اسمع، بالذوق بالعافية حتقول حتقول، فأحسن لك تقول بالذوق أحسن، وبعدين انت عرفني شبطة ولازم أعرف كل حاجة، انت فاكرني لسة صغيرة، أنا يابني حدخل جامعة السنة الجاية، ودماغي يوزن بلد، بس انت جربني وقولي إيه اللي مأثر عليك بالشكل ده.

أقولك والأمر لله، محنا مش ح نخلص الليلة من طول لسانك، وبعدين مفيش حيد حيرسيني على الوضع دا غيرك، بس على شرط يفضل الكلام ده سر بينا.

– دا طلع موضوع. باين عليه موضوع تمام.

– انت ح تتكلمي ولاح تسمعي.

– حسمع بس قول.

– انت تعرفي إيه عن فاطمة بنت الشيخ سعيد، أنا فاكرك لما كلمتيني عنها مرة قبل كده.

- وانت إيه اللي فكرك بالموضع ده النهاردة.

- أصل أنا شفتها النهاردة، نسيت مفتاح الورشة، وبعدين قلت أجيبه من هناك.

- أيوا يا سيدي وشفت القمر، واتعرفت ع الملاك الطاهر، يا بختك يا عم، ويا بختها هي كمان، دي كان نفسها تشوفك.

- تشوفني، اعتدل محمد في جلسته مسرعا، كمن دُهش بما سمعه، وهي تعرفني منين؟

- انت ناسي إن الشيخ سعيد كان صاحب والدك الروح بالروح، وهو دايما بيحكلها عليك زي ما بيحكلها على والدنا الله يرحمه. وكمان متنساش إني كنت برده بحكي لها عنك، وأقولها إن انت اللي بتشرحلي الدروس.

- آه عشان كده بتقولي يا أستاذ محمد !

- هي قالت كده ؟ آه ربنا يستر وميحصلش اللي في دماغي.

- وإيه اللي في نفوخك.

- إن السنارة تغمز، وتحبك وتحبها وبعدين ييجي دور المأذون.

- وإيه المشكلة في كده، ما هي بنت زي أي بنت، وكفاية إنها بنت الشيخ سعيد.

- ما هو دا مربط الفرس.

– مش فاهم.

– قامت أمينة، أخذت جولة في الحجرة، ثم جلست على حافة السرير الذي يجلس عليه محمد: انت ناسي إن والدتك بتكره الشيخ سعيد كره العمى، ومش ممكن توافق ع الموضوع ده بالساهل، انت مش فاكر والدتك عملت إيه لما أَجَّرت الورشة منه، ولسه هي قايمه تصفى م الموضوع، فمابالك لو حصل اللي في دماغك.

كانت كلمات أمينة أشبه برضخ الحجارة، الذي قذفته في رأسه فسال ما فيه من أفكار. صمت محمد، أخذ شهيقا يكفيه لملايين السنين، ثم تنهد في ضجر، يعني رجعنا تاني لنقطة البداية من جديد.

أمينة : يعني إيه ؟

– الأسرار، نفسي أعرف إيه السر اللي والدتك مخبيَّاه علينا، وباين عليه مش سر واحد، دي حزمة م الأسرار إحنا عيشين فيها ليل نهار، باين علينا حنعيش في ألغاز لحد ما نموت، بس أنا مش حسكت، أنا لازم أعرف الحقيقة من هنا ورايح.

لم يكد محمد يكمل كلماته، حتى جاء صوت والدته تنادى على أمينة : انت فين يا أمينة، محمد جه ولا لسة ؟

أمينة : أيوا يا ماما أنا هنا، ومحمد معايا.

دخلت الحجرة، سلمت عليهم، ثم قالت: يلا يا بنت حطي العشا. التفوا ثلاثتهم حول الطبيلية، وهم يتبادلون النظرات، ينظر محمد إلى

أمينة وتنظر إليه، ثم ينظران سويا إلى عيني والدتهما التي تبدوان كبحر عميق لا يُدرك غوره.

(١٥)

ذهب محمد إلى ورشته وفي ذهنه أول هَم يلاحقه ويكبر في داخله. تعود محمد من صغره أن يواجه مشكلاته بنفسه، وأن يجعل لها حيزا لا تتعداه، ولا تؤثر على مسارات حياته، وكانت فلسفته التي يؤمن بها: أنّ خير علاج للمشاكل اقتحامها، فإن المشاكل تزيد بالهروب منها، وتكبُر بالبعد عنها في الوقت الذي تضعف فيه نفس صاحبها على المواجهة. ولكنّ مشكلته تلك التي يمر بها مشكلة محيرة، إن المشكلة هو أنه لا يعرف ما المشكلة، لذا فإن غضبه يعلو، وانفعاله يزيد، لأن عدوه الرئيسي في هذه الحالة هو الجهل.

دخل محمد الورشة فوجد إبراهيم قد سبقه إليها.

- إيه يا عم إبراهيم ! احنا بقينا بنصحى بدري.

- خلاص يا معلم محمد زمن الأونطة واللعب عدى خلاص، ودلوقت لو ما ثبتناش نفسنا في مكانا الجديد البلد تآكل وشنا.

سُرّ محمد بكلام إبراهيم، وصدق فيه حدسه، كان يعلم بأن تحمل المسئولية هو الذي سيخلق من إبراهيم رجلا يُعتمد عليه، وها هو الآن في أول طريق الرجولة

- طيب يا حكيم البلد يلا بيناع الشغل.

- برهومة : ألا قولي يا محمد إيه رأيك في الواد حسونة.

محمد : باين عليه بتاع شغل، وشكله كده حيجي منه.

برهومة : والله أنا مش عارف مش مستريح له ليه، كان لازم يعني توافق تشغله معانا، يعني الورشة ناقصة حد خامس، ما هو سيد وحسنين كفاية عليها.

محمد: والله أنا مقدرتش أزعل المعلم حمودة وأرد طلبه، خاصة إن الواد ظروفه تعبانه وقلت أكسب فيه ثواب.

برهومة: إحنا منعرفش حاجة عنه، وإيش درَّانا بحقيقة أمره، هو يعني كان من بقيت أهلنا، ولا ابن بلدنا علشان نعرف ظروفه، دا لا نعرف أصله من فصله، وأنا بصراحه الفار بيلعب في عبي من يمته، وبسأل نفسي طيب وليه المعلم حموده مشغلوش معاه؟

محمد : هو انت بقيت بتربي فران ف عبك اليومين دول ! يا عم سيبك من سوء الظن ده، كل اللي يهمنا من يمته شغله، وطالما بيشتغل كويس حمِّل عليه.

لم يقتنع برهومه بما قاله محمد، ولم يعجبه منه مبدأ المسالمة، وحسن الظن، وطيبة القلب، لذا صمم في نفسه أن يتابع حسونة ويرقبه لعله يطّلع منه على ما يؤكد نظرته فيه.

كان حسونة فتىً لم يكمل الثامنة عشرة بعد، طويل القامة، قمحي اللون، أشعث الشعر، مفتول الساعدين، قوي البنية، غائر العينين،

الوحيد الذي يدخن في الورشة.. يدخن بشراهة. أحضره المعلم حمودة إلى محمد لكي يعلمه الصنعة فهو لا يثق إلا فيه، وبالمرة يساعده على التكسب مراعاة لظروفه حيث أنه العائل الوحيد لأسرته المكونة من أربعة من الأخوة والوالدة بعد وفاة والده.

كان حسونة من قرية كفر الساحل المجاورة لقريتهم، لذا كان محمد يسمح له ببعض التأخير صباحا، ويصرفه مبكرا قبل أقرانه نظرا لظروف السفر وبُعد المكان.

***

أنهى محمد عمله في الورشة ولم يبق غيره وإبراهيم، بعد انصراف بقية الصنيعية.

محمد : بص يا برهومة، بكرة إن شاء الله تعمل حسابك تفتح بدري؛ زي النهاردة كده، لأني سوف أتأخر ولن آتي إلا على الظهر.

برهومة : خير إن شاء الله ؟

محمد : سوف أنزل البندر في زيارة سريعة إلى خالي شريف وأولاده، لأنني لم أرهم منذ مدة طويلة.

برهومة : ولا طويلة ولا حاجة، مهو كان هنا من أسبوعين فاتوا، وجه زارنا هنا، انت نسيت ولا إيه؟

محمد : لا يا سيدي مش ناسي، بس عاوز أزوره وخلاص أنت شريكي يا اخي.

برهوم : بالعقود والشهود وحياتك، ولا انت ناوي تفضها شركة وكل واحد يروح يلعب عند داره.

محمد : هو انت دايما تقلبها هزار كده، ياخي الله يجازيك خير.

برهومة : أنا عارف إن الزيارة مش هي الهدف، أكيد فيه سبب تاني، على العموم يا خبر النهاردة بفلوس بكرة يكون ببلاش، وبكرة المستور يبان.

محمد : نعم صدقت، بكرة المستور يبان.. بكرة المستور يبان.

(١٦)

انطلق محمد يشق طريقه إلى المركز لزيارة خاله بعد أن صلى الفجر. كان لخاله ولدين هما شاكر وحسان، كان أحدهما يعمل مدرسا في إحدى معاهد الأزهر، والآخر ما زال طالبا بكية الدعوة، وقد اختار لهما الأب سلك التعليم الأزهري لأنه في رأيه يجمع بين علمي الدنيا والدين، يعلم الطفل العلوم الشرعية؛ في الوقت الذي يمده بالتعليم العام، ومهما يكن من صعوبة لذلك على الطفل خاصة في مراحله الأولى، إلا أنه يظل التعليم الأمثل الذي يجب أن يعمم ويسود، ولكنه يحتاج من القائمين عليه مهارة التنظيم الدقيق، وترتيب الأولويات في كل مرحلة.

***

– إزيك يا محمد يا ابني، عامل إيه، وازي أمك وأختك؟

– الحمد لله كلهم بخير.

– والورشة أخبارها إيه ؟

– الحمد لله، الرِّجل عليها شغالة، وانت عارف إن سمعتنا في المجال كويسة، دي كفاية سيرة الشيخ حسن عند الناس دي زي الجنية الدهب.

– مش كفاية تعتمد على سيرة أبوك، المهم في شغلك الإتقان والصدق مع الزبون، وإرضاء ربنا في كل صغيرة وكبيرة.

– والله يا خال أنا من ناحية الشغل معنديش أي مشكلة بس... (ترك محمد كرسييه، ثم جال جوله حول كرسي خاله في الصالة)

– بس أُمال إيه.. خير يا محمد انت مشغول بإيه يا ابني، فيه حاجة مخبيها عليّ؟

– أهي دي المشكلة يا خال.

– مشكلة إيه يا ابني.

– مش أنا اللي مخبي عليك يا خال، انت اللي مخبي عليّ.

– ومخبي عليك إيه بقى ؟

– بص يا خال أنا حتكلم معاك بصراحة، من غير لف ولا دوران، وأرجو أن تحدثني أنت بنفس لغتي ومنطقي. أنا وأنت عارفين إن فيه سر كبير أمي مخبياه عليّ، واللي أنا واثق منه أكيد إنك عارف كل حاجة عن الموضوع ده، علشان كده أنا جيت لك تصارحني بكل حاجة، وانت عارف أنني مش صغير، ودماغي يوزن بلد.

– تقصد سر إيه ؟

– أنا مش عارف إيه هو السر دا بالظبط، بس كل اللي أعرفه إن السر دا مرتبط بوالدي الله يرحمه والشيخ سعيد، جايز يكون فيه أشخاص

آخرين، معرفش.. قلي انت بقى.

– بص يا محمد يا ابني، أنا ح قلك على كل حاجة: من سنين فاتت، واحنا صغيرين أنا ووالدتك، كان سِيدك الله يرحمه راجل البلد كلها تقوم وتنام بكلمه منه؛ مش خوف منه ولكن حبا فيه. وكانت أمك في الوقت ده عندها ستاشر سنة، وقد تقدم لخطبتها سعيد ابن الحاج رضوان شيخ الغفر، وقد كان رضوان هذا رجلا جلفا غليظا، تهابه البلدة ولا يحبه أحد، وكان يظن نفسه فوق المساءلة وأنه يملك رقاب الناس، فرفض جدك زواج سعيد من الست والدتك لسمعة والده، ثم تقدم والدك الشيخ حسن لخطبتها، وقد كان والده رجلا مستور الحال، فقير ذات اليد، لكنه عفيف النفس، يعمل بالأجرة صحيح ومنعدوش قيراط ملك؛ لكنه محبوب من الناس لنزاهته وشرفه وجميل خُلقه، فقبله جدك وزوّجه ابنته، فاغتاظ الحاج رضوان لرفض طلب ولده، واغتاظ أكثر من قبوله لحسن بن محمود أبو سلمان، وقد ظل هذا الأمر يحرك بواعث الحقد فيه حتى مات، ولعل الذي كان يضايقه أكثر وأكثر، أن البلد قد أخذت مما حدث مثلا يتناقلونه فيما بينهم (خد الحر وإن عز ماله، وسيبك م المنفوخ على الناس وإن كُتر ماله)، ولما حصل اللي حصل، ومات أبوك في الليلة إياها المشئومة، ظنت أمك أن للشيخ سعيد دخل في موت أبيك، ومن اليوم ده والست والدتك بتكره الشيخ سعيد مع إن مفش اتنين ف البلد يختلفوا إن أبوك والشيخ سعيد كانوا أكتر م الأخوات، ولا يمكن أبدا يفكر الشيخ سعيد إنه يمس شعره من أبيك، والدليل على كده إنه حفظ فلوسكم طول المدة دي كلها، ونماها

لكم بالحلال من غير ما ينقص منها مليم واحد.

- فلوس إيه يا خال؟

- الفلوس اللي انت فتحت بيها الورشة، انت عارف الفلوس دي فلوس مين؟ فلوس أبوك الله يرحمه، كان ناوي يفتح بيها ورشة نجارة شراكة مع الشيخ سعيد، وبالفعل أعطاه النقود واتفقا سويا على الذهاب في نفس هذا اليوم المشئوم إلى المركز لشراء مستلزمات الورشة من العِدد وخلافه، ولما حصل اللي حصل ورفضت والدتك أخذ الفلوس، جالي بيهم الراجل لحد البيت واتفقنا سويا أن ينميها لكم بالحلال في مشروع يختاره، على أن تظل أمانة ووديعة عنده لوقت اللزوم، ولما جاء موعدهم، الراجل مكدِّبش خبر وأعطى الفلوس لوالدتك مع الزيادة، وآدي كل الحكاية من طقطق لسلامو عليكم من غير ما أخبي عليك حاجة.

أنهي خال محمد حديثه، ومحمد جالس على كرسييه وكأن على رأسه الطير، لا يكاد يصدق ما يسمع، ولا يستطيع أن يحدد حقيقة شعوره، أيفرح لأنه علم السر؟ أم ماذا يفعل؟ وبأي وجه سيقابل والدته بعد أن عرف المستور؟ صحيح أن خاله قد كشف له بعض الستائر ليطَّلع في نصاعة على ما تم، ولكنه ألقى كثيرا من الحُجُب على ما سيكون. وربما كان من السهل عليه أن يسير بلا دراية، أمَا وقد علِم فبأي لغة سيحدث أمه؟ لغة من عرف أم لغة من ظل على جهلة ؟ إن كثيرا من الأسئلة لا يجد لها إجابة : هل مات أبوه أم قُتل؟ هل للشيخ سعيد دخل في موته أم

أنه بريء؟ هل يخبر أخته بما عرف أم يتركها ؟ هل يصارح أمه بما علم أم لا ؟ وما مصير (الملاك) أذهب مع الحلم وبقى الواقع المر، أم أنه ما زال هناك أمل؟

.. آه، ماذا أفعل كنت أظن أنني سأستريح بالمعرفة، فماذا أفادتني المعرفة غير الهم الثقيل. لم يخرج محمد من توهان ذهنه وشرود فكره غير جرس الباب وتقدم خاله نحو الباب ليفتح. كان القادم حسان ابن خاله الطالب بكلية الدعوة.

دخل حسان فوجد محمد جالسا:

– أبوحميد، إزيك يا راجل عامل إيه، كويس إنك هنا، دا أنا عوزك في موضوع مهم.

– أهلا أبو حسان، خير، إيه يا سيدي الخبر، م انت موضوعاتك كتيرة.

– الفلسفة يا سيدي، أنا مش فاهم فيها حاجة ويا ريت نقد ندردش مع بعض فيها شوية على رواقة.

– ومنين تيجي الرواقة دلوقت، دي العملية صعبة خالص.

– يعني بتقول كده علشان بقيت رجل أعمال وصاحب ورشة ومنتش فاضي لحد، اللي عطاك يعطينا يا عم.

– معلش، مش المرة دي، أنا ح ستأذن منك دلوقت، وحجيلك مرة تانية، أنا ورايا ظروف.. ولاّ إيه يا خالي.

- معلش يا حسان، سيب ابن عمتك دلوقت لأن وراه حاجات مهمة، وح يمر علينا قريب.

- امتى بس؟

- أجازة نص السنة فاضل عليها حاجة بسيطة، حجيب أمينة وعمتك يقضوا معاكوا يومين ونبقى نقعد برحتنا.

- خلاص، واحنا في انتظاركم.

- متنساش تسلم لي على شاكر.. سلام.

(١٧)

عاد محمد إلى بيته في نفس موعد عودته من الورشة كل يوم، ولم يخبر أحدا سوى إبراهيم بزيارته لخاله. تناولوا العشاء، هرع محمد إلى فراشه مبكرا على غير عادته متعللا بتعبه وإرهاقه في العمل، تركته أمه وأمينة دون نقاش.. يمكن تعبان يابنتي، هي الفترة دي هي فترة التعب لحد ميوقف الورشة على رجليها.

كان غريبا أن يرى محمد والده في المنام هذه الليلة. منذ وفاته لم يره محمد غير مرتين، كانت هذه هي الثالثة، رأي محمد كأن أباه قد حُمل إلى البيت بعد أن اصطدم رأسه بعمود الساقية، الدماء تنزف من رأسه، والجلباب الأبيض الذي يلبسه قد صار طوبيا متحقق الحمرة، أخذ أبوه ينظر إليه بابتسام رغم ما هو فيه، ثم مد إليه يده، وضغط عليها بقوة وهو يقرأ قول الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم" ردد هذا الشطر من الآية مرتين، ثم استيقظ محمد من حُلمه وأذان الفجر.

تعجب محمد من الحُلم وقال: لعله خير. ثم ارتدى ملابسه وذهب لصلاة الفجر. أنهى محمد صلاته خلف الشيخ سعيد، ثم ظل جالسا في المسجد حتى طلوع الشمس يفكر في شيء واحد: هل أفاتح الشيخ سعيد في الأمر؟ هل أستفسر منه عن حقيقة ما كان؟ قام محمد متثاقلا إلى الورشة، جلس يفكر.. دخل عليه برهومه وهو على حالته هكذا

شاردا غير منتبه.

– برهومة يوجه الحديث إليه : إيه.. يا حكومة، يا باشا، يا سيادة، صباح الفل، دانت جي مش ناوي على شغل النهاردة كمان. إمبارح في المركز، والنهاردة سرحان.. دحنا نفضها شركة وخلاص.

– لم يعبأ محمد بكلامه، انتفض واقفا، تركه وانصرف، أنا رايح عند الشيخ سعيد.

طرق محمد الباب، فتحت فاطمة، لم يُبد محمد لها أي اهتمام مثل ذِي قبل: ممكن أقابل الشيخ سعيد.

– اتفضل يا استاذ محمد، هو بيشرب الشاي، سوف أبلغه حالا.

سمع الشيخ صوته من داخل البيت، كان الشيخ ينتظر هذه الزيارة منذ عشرين سنة، ويعرف بفطنته أنه سوف يأتي اليوم الذي يأتيه محمدا ويسأله، فيصارحه بكل شيء، كان الشيخ يستقرئ نظرات محمد وتعبيرات وجهه، وهو خير من يقرأ تعبيرات الوجوه التي تخبر عن مكنونات القلوب، رآه الشيخ في الفجر فعلم أن شيئا ما يشغله، وأن أمراً ما يؤرقه، فعلم أنها الساعة، فجلس في البيت يرقب قدومه، وينتظر وصوله، فلما حل قام إليه واقفا يطلب دخوله :

– اتفضل يا محمد يا ابني، تعال افطر واشرب معايا الشاي.

– اعفيني يا عم الشيخ سعيد، الوقت مش وقت زيارة، وأنا لولا أهمية الموضوع لم أكن لآتيك في مثل هذا الوقت من الصباح.

– تعرف يا محمد يا ابني لو أن المسلمين يفهمون دينهم صحيح، كان يبدأ يوم المسلم الصادق من قبل الفجر، وأنا يا بني والحمد لله لم أنم عن فجر طيلة ثلاثين سنة، والفضل يرجع في هذا إلى والدك عليه رحمة الله. أتعرف كيف؟

أراد الشيخ بفطنته أن يقلب دفة الحوار فبدلا من أن يسأل محمد، يسأله هو ثم يسترسل في الكلام فيمتص بذلك غضبه، ويخفف من توتره ويُسلمه إلى قوة التعقل فيه، ويوضح له حقيقة ما جري بالتدريج.

– كيف ؟

– منذ زمن طويل مضى، تعاهدنا سويا على الإصلاح، إصلاح حال البلد، فجلسنا سويا - وكنا وحدنا الأزاهرة في البلد – نعاهد الله أن نصلح ما أفسده المفسدون، وأن نبني ما هدمه المخربون، وأن نرشد الناس إلى الصواب ومعالىَ الأمور، ولكننا بعد أن اتفقنا على الإصلاح اختلفنا في التنفيذ.

– وكيف حدث ذلك ؟

– قام أبوك بعمل حصر لمظاهر الفساد في البلد، وكانت ثلاثة أسباب من وجهه نظره: الجهل؛ جهل الناس بالدين، وبعدهم عن نهج ربنا القويم. لفساد؛ المتمثل في الربا اللي كَلْ أموال الغلابة، وخرّب بيوتهم. والعلاقات المشبوهة؛ اللي كان أول خطوة فيه انتشار الغوازي في البلد. ليس هذا فحسب ولكن أيضا الطبقية، تلك المتمثلة في الإقطاع اللي حوّل البلد لأثرياء إلى حد الطغيان، وفقراء إلى حد المذلة والامتهان.

والعيب الوحيد اللي غلط فيه والدك وأثبت الزمن خطأه فيه، إنه كان مستعجل أكتر م اللازم، وكان شايف إنه ممكن يصلح حال البلد في يوم وليله، واللي ميجيش بالذوق ييجي بالعافية، كان حماسه زايد، وكان اندفاعه أهوج، وكانت حركاته أسرع، عايز يواجه الظلم من غير ما يملك وسيلة للمواجهة، وعاوز يصلّح الناس من غير ما يُعطي لهم فرصة يفكروا في اللي همّا عليه ويختاروا همّا الطريق اللي يمشوا فيه. كان واجب عليه بس ينور لهم الطريق بكشافهْ ويسبقهم، وبعدين يسيب لهم حرية الاختيار علشان يمشوا وراه. والغلط التاني اللي وقعنا فيه، هو نقطة البداية: فبدلا من أن نبدأ من اصلاح مشكلة الجهل والجهالة بتربية الناس، وصقل معادنهم كي يساعدونا في التغيير والإصلاح؛ للأسف بدأنا من مشكلة الفساد وتفاوت الطبقات، علشان كده هيِّج كبراء البلد عليه، وفي يوم وليلة حصل اللي حصل وانهد كل شيء بنيناه، ليس لأننا أخطأنا الوجهة، بل لأننا لم نحسن اختيار الوسيلة. لقد أخطأنا وكان يجب أن نَصارح أنفسنا. إن الزمن جزء من العلاج، وكلما كانت الغاية أكبر، تطلَّب تحقيقها وقتٌ وجهدٌ أكبر. ويجب أن تعلم يا بُني أنه لا بديل عن التربية.. تربية الجماهير للوصول إلى الغاية المنشودة، إنها الحصان الرابح، والطريقة الأمثل والأسلم، وبعدين الشرع حث عليها، والرسول بدأ الدعوة بها.

– انت قلت يا شيخ سعيد إن والدي هيج كبراء البلد عليه، ومين همّا كبراء البلد دوُل؟

– بص يا ابني في الزمن ده، كان الناس فئتين لا ثالث لهما، إما غني باذخ الثراء وإما فقير عقيم مدقع الحال. علشان كده كان أبوك يخطط أن نشترك في مشروع نعتمد عليه في دُخولنا، ونستند إليه فلا نَمد أيدينا لأحد، لأنه من مد يده للأخذ، هيهات أن يرفعها للرد، ولأن من ملك قُوُته ملك حريته. واخترنا مشروع النّجارة لأن والدك كان عنده فكرة عنه، ولأن عليه الطلب باستمرار، ولكن بعد أن قررنا تنفيذ المشروع مات والدك وانتهى الحلم بموته، ثم ها أنت تقيم المشرع من جديد. انظر يا ولدي إلى المدة بين غرس الفكرة وبين جني ثمارها، عشرون عاما دفعتها من نفسي وفكري وأعصابي حتى تم لي ما أريد، فتمكّنت في الأرض جذور دعوتي، وسمقت في الفضاء فروعها.

– طيب معلش يا عم الشيخ سعيد، سوف أسألك سؤالا وأرجو أن تجيبني بكل صراحة. هل كان لأبي أعداء ؟

– ابتسم الشيخ ثم قال، يعني انت منتش عارف إنك لك أعداء ولا لأ ؟

– أنا بسألك عن والدي، مش عني.

– اللي يجري على والدك يصير عليك، وعلى كل الناس.

– إزاي؟

– وهل تستقيم الحياة بلا أعداء؟! يا محمد يا ابني: من ليس له أعداء لا قيمة له في الحياة، وإلا فكيف يعادي الناس من لا يهتمون به ولا

يعبئون بصنيعِهِ، الأعداء في الحياة سنة كونية، وما دام الحق في صراع مع الباطل منذ الخليقة حتى الساعة فسيظل جند الباطل في معاداة مستمرة مع جند الحق " وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ". واعلم يا بُني أنه لا يكثر أعداء رجل إلا إذا كثر أتباعه ومحبيه، فحينئذ تمتلئ قلوب فئة بالحقد والغيظ، ولا يجتمع على حب فردٍ كل القلوب، ووالدك يا بني كما أحبه الناس واجتمعوا عليه، بَغِضَه آخرين وكرهوه، ولكن من هم ؟ لا نستطيع أن نجزم بذكر واحداً منهم، وإلا فمن قتل والدك ؟!

- أهو ده اللي أنا عاوز أعرفه ؟

- مين اللي قتل الشيخ حسن؟! دا بقى في علم الغيب عند الله، ومفيش حد يعرف مين بالضبط، ولكن يا بني القاتل سينال جزاؤه عند الله، وعقوبة الآخرة أشد ألف مرة من عقوبة الدنيا.

صمت محمد، وقد عرق جبينه وبدا عليه أنه في حالة شرود. لاحظ عليه الشيخ ذلك فقال له: اشرب شايك يا محمد يا ابني، وانس الأمور دي كلها، أبوك مات شهيد وجزاؤه عند الله " في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر "، وهذه يا بُني ضريبة أصحاب الغايات النبيلة، والرسالات العالية؛ أن يقدموا أنفسهم وما يملكون فداءً لما يؤمنون ويعتقدون أنه الحق.

نظر محمد إلى الشيخ حسن نظرة غريبة هي مزيج من كل مشاعر الدنيا المتناقضة، ثم قال: وإذا كان والدي دفع الضريبة، فماذا فعلت

أنت؟ ولا انت نسيت الدعوة بموت الشيخ حسن ؟

– لا يا بني أنا لم أنس، إلّا أن موت والدك علمني الكثير، علمني أن قضية الإصلاح لا تبدأ إلا من نقطة واحدة هي التربية، وهذه التربية عملية طويلة الأمد، لا تتم في يوم وليلة بل تحتاج إلى جهد ومثابرة، وتضحية وصبر، والحمد لله كثيرا مما كنا نعانيه من أمراض تفشت في المجتمع قد تم إزالتها ومعالجة أسبابها، وكثيرا ممن كانوا يعدون أنفسهم مصلحين هم فسدة، يلبسون للناس رداء التنسك وهم ذئاب، يتخفون في ثياب الحقيقة وهو أهل باطل، كثير من هؤلاء بفعل الزمن ظهرت للناس حقيقتهم، وتبين لأولي الأبصار سوء معدنهم، وما كانوا في الحقيقة إلا من الفئة التي قال الله فيها: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) ". ولك أن تعلم يا بني أن أهل النفاق لا يستطيعون أن يمارسوا هواية التخفي طول الأمد، ولا أن يقنعوا الناس بمنطق المداهنة طيلة العمر، إنما هم في عِراك مع الزمن تفضحهم نواياهم، وتُظهرهم على حقيقتهم رغباتُهم، وتكشف عن جهالتهم ادعاءاتهم. يا بني لك أن تقول أن ما فعلته أنا والشيخ حسن حتى الآن هو تنقية الأرض وتقليبها وحرثها وتهيئتها لما ستقوم أنت وجيلك به من تتمة للإصلاح، واستكمالا لأسبابه، وهكذا تنتقل الراية من جيل لجيل، والشعلة من رجال لآخرين، ليكن خير خلف لخير سلف، ويكفي أن تنظر إلى صلاة الفجر في المسجد الآن، تجد عشرات الشباب خلف الإمام يصلون في خشوع، ويعيشون مع الله في خضوع وطاعة، مثل هؤلاء لم تكن تستطيع

رؤيتهم منذ سنوات، وأنت واحد منهم.

وقعت كلمات الشيخ سعيد على محمد في القلب منه، وبلغت منه كل مبلغ، فسكَّنت ما كان منه مضطربا، وداوت ما كان سقيما، فأسند رأسه إلى الكرسي الذي يجلس عليه، ثم أخذ نفسا عميقا أخرجه ببطء شديد، ثم حمل كوب الشاي، وارتشف منه رشفات حتى أكمله، ثم قال: أتسمح لي حضرتك بالانصراف ؟

– انت مستعجل كده ليه يا محمد يابني، احنا لسة مكملناش كلام.

– ما قلته فيه الكفاية ويزيد، لقد أشبعني من جوع، ورواني من ظمأ، وأراحني من تعب، ووجّهني إلى ما غفلت عنه، ولا يبقى فقط إلا معاودة التفكير فيه لتكون العزيمة في تنفيذه، والهمة في العمل به، وهذا يحتاج إلى بعض الخلوة ومراجعة النفس وهذا ما أحتاجه الآن.

– على العموم قلبي وبيتي مفتوحين لك في أي وقت.

– طيب أستأذن.

– مع السلامة.

انصرف محمد وقد رطبت كلمات الشيخ كثيرا مما قد أصابه، وإن كان محمد لم يستوضح منه حقيقة من قتل الشيخ حسن، إلا أن الحسنة الوحيدة لهذا اللقاء أنه صرف ذهنه من التفكير في قاتل أبيه إلى قضية أكبر وأهم: هي من أفسد مجتمعه؟ إنه نقله من التفكير في الخاص إلى التفكير في العام، ومن الانشغال بالنفس إلى الانشغال بالمجتمع، ومن

الإستغراق في الجزء والتفصيل إلى التعلق بالعموم والكليات. وهكذا أحس محمد أنه لم يعد ينظر لمجتمعه من على الأرض؛ بل من فوق الجبل، وبدلا من أن ينصرف ذهنه فقط لمعرفة نفسه والتصدي لرغباتها؛ إلى تأمل المجتمع من حوله محاولا كشف عيوبه، والتصدي لمشكلاته. كان محمد فيما سبق (ابن نفسه)، فصار من اليوم (ابن مجتمعه). ورغم أن تلك الزيارة استطاعت أن تحل له الكثير من العقد، وتميط اللثام عن عديد من إجاباتٍ لتساؤلات ؛ إلا أن أمرا مازال يؤرقه، وشيئا ما بقى تياره في النفس يزعجه: هو موضوع فاطمة، وماذا يكون من رد فعل والدته تجاه هذا الأمر ؟!

(١٨)

كانت فاطمة تسمع حوار أبيها مع محمد. كانت فتاة ذكية، سريعة الفهم. راعها ما رأت محمد عليه أثناء دخوله، سرعان ما أدركت أن أمرا ما يقلقه، فالتاع معه شعوره، وتأرق معه كيانه. كانت فاطمة تحبه، تود لو أنها صارت يوما زوجته. تجمعت لديها عشرات الحكايات والحكايات عنه، وعن أبيه وأمه. كانت تعرف عنه أكثر مما تعرفه فتاه. كانت دائما ما تجلس إلى نفسها متسائلة: أعرف كل شيء عن محمد، لكنني لا أعرفه هو، متى أعرفه؟ كانت تود لو أنها جالسته مرة أو مرتين لتتعرف عليه، وتألف طباعه، وتنظر مدى إقباله عليها أو إدباره عنها؛ إلا أن حياؤها يمنعها، وطيب عنصرها يقف عائقا دون رغبتها. أما الآن فمحمد هنا بجوار بيتها، ثم ها هو الآن في بيتها تسمع حديثه وتراه؛ بل وتحاوره أحيانا. يا لفرحة قلبها بهذا الأمر، ولكن ما الذي حدث، إن محمد يبدو غاضبا أشد الغضب، ما الذي يغضبه يا ترى؟ كانت فاطمة تعلم بطلب والدها خطبة والدة محمد قبل الشيخ حسن، وتعلم بتفاصيل موته، وكانت تخشى أشد الخشية من أن تكون الست عنايات تشك أن لوالدها دخل في موت الشيخ حسن، وكانت تخشى أكثر وأكثر من أن يقتنع محمد يوما بمنطقها، ستصبح إذا كارثة. لذا لما رأت فاطمة محمدا على حالته تلك، ظنت أن الأمر ما فكرت فيه. فلما

سمعت حوارهما، ثم انصرف محمد ذهبت إلى والدها تكلمه.

– الشيخ سعيد : إيه رأيك ف اللي سمعتيه ؟

– أنا لي بعض الملاحظات لو تسمح أخبرك بها.

– قولي.

– مش ملاحظ إن دي أول مرة محمد يكلمك فيها عن الشيخ حسن.

– احنا تكلمنا عن الشيخ حسن كتير.

– كنت انت كل مرة تكلمه، بس النهاردة هو اللي طلب منك إنك تكلمه عنه.

– ودي فيها إيه، دا أنا حتى كنت متوقعها ومستنيها.

– لو بصيت لمحمد لما جة، وشفت تعبيرات وجهه، والغضب اللي كان باين عليه، وسؤاله عمن قتل والده لأحسست أنه كما لو كان هناك سر يخفيه.

– شرد الشيخ سعيد بذهنه، وأخذ يدور في مكانه وهو يتمتم في نفسه بكلمات مسموعة : ويا ترى ممكن يكون إيه، يمكن تكون الست عنايات أخبرت محمد الخبر، وصارحته بشكوكها نحوي؟ أمَّا لو كانت عملت كده ؟ كانت بقت مشكلة، ويا ترى محمد ممكن يصدقها؟ أكيد مش ممكن، دي كانت تبقى كارثة.. يا ترى عملتِ إيه يا ست عنايات؟

(١٩)

أفرع النور تمتلئ بها الطرقات فتضيء ليل القرية، وتحولها إلي صبح مشتعل، والزينة تعلق في كل مكان، وأماكن كثيرة معدة للجلوس ومفروشة للزائرين، وبيت الحاج فريد قد تحول إلى تحفة فنية رائعة.

كان منظرا غريبا على القرية، لا تألفه إلا في ليالي رمضان حيث تعلِّق العائلات الكبيرة الأنوار على بيوتها تيمنا وفرحة بهذا الشهر الفضيل، أو في سهرة عرس لأحد أولئك البشوات من أصحاب العِزب والأطيان.

.. رجال القرية لا ينامون إلا مع الفجر، قوافل البشر مجتمعة في بيت الحاج فريد لا تغادره منذ ثلاثة أيام.

١- (وقد أمسك بكوب من الشاي) يا سلام يا ولاد أما الفرْح حلو بشكل.

٢ - (وقد أمسك بخرطوم الشيشة) زي العسل، شوف مغمس بالمعسل إزاي، خدلك نفسين خد، دوق يا وله دوق.

حسونة (وقد نظر إليهما وضرب كفا بكف) رزق الهبل ع المجانين، اشفط يا خويا اشفط، وانت لغ كمان لغ، ربنا يديك طولت العمر يا حاج فريد وتفرح كمان وكمان.

٣ – (وهو متكئ) دا راجل كريم، هو فيه حد في البلد زيه، طول عمره بتاع ربنا.

برهومة : وهو لما بتاع ربنا مالي البلد غوازي في فرح بنته ليه، يا أخي كان جاب صيِّيت أحسن، ع الأقل كان يمدح في النبي.

١ – (وقد أخذ يقهقه، ويهز جسمه كما تفعل الراقصات) هي السهرة تحلى وتلعلع إلا بالبالوظة يا وله، شوف كده انت لما هي بتلعلع بتعمل إيه في البلد، بتخليها نار، نااااار يا حبيبي نار.

٢– وبعدين قلي لو جاب صييت، مين م البلد اللي ح يقعد يتفرج عليه، دا انت أول واحد حتقوم وتسيبيه، مش كده يا برهوم.

٣ – باين عليه حيستشيخ فيها، أيوا يا عم ماهو شغال مع الشيخ محمد، وكمان إيه، في بيت مولانا.

حسونة : انتو مستكترين على الراجل يفرح ببنته الوحيدة، يا عالم يا سوْ سيبو الناس تفرح على مزاجها.

٤ – بس الشهادة لله، الراجل استعجل، دي بنته إنصاف معداش عليها السنة، هو خبر إيه يا ولاد، دا الدم عمره ما يبقى مية.

١ – يا عم روح كده، انت بتفهم حاجة، مفيش واحد في البلد إلا وهو كان عارف إن البنت المهبولة دي كانت حتموت بالطريقة دي، يعني نهايتها كانت متوقعة ومعروفة.

٢ – وبعدين فضوها سيرة، دا الحي أبقى م الميت.

حسونة : دانتو ناس غم، هو احنا في فرح ولا ميتم، أنا سيبهالك يا عم ابراهيم وقايم.

برهومة : انت قايم تشوف غموس في حتة تانية.

٤ – ودا كله حييجي في يوم على صحته، وبكرة يندم.

٣ – ما هو عامل زي المنشار طالع واكل ونازل واكل.

الحاج فريد وقد سمع طرفا من حوارهم: متخفوش يا رجالة، الأكل كتير والخير يامه، واللي انتو عوزينه كله موجود.

(مجموعة الشباب في نفس واحد) ربنا يكرمك يا حاج فريد، ويوسع عليك.

– فريد وقد وجّه كلامه إلى إبراهيم: إيه يا ابراهيم أُمال صحبك محمد مجاش معاك ليه ؟

– والله انت عارف إن محمد ملوش في الكلام ده (وقد أحس بحرج فقال) وبعدين الورشة فيها شغل موت، ومحدش فاضي يبص حواليه.

– دا كان واجب عليه على الأقل يجي يبارك ويمشى على طول، وبعدين أنا بعتله المعلم حمودة يدعيه هو والشيخ سعيد.

١ – فيك الخير يا عم الحاج.

٢ – كلك واجب.

٣ – الحاج متفتوش حاجة أبدا، ابن أصول.

- فريد وقد وجه كلامه إلى حسونة : متنساش تآخد معاك أكل لأمك وأخواتك.

- حسونة : ربنا يوسع عليك يا سِيد الناس.

- انصرف فريد، فوجه برهومة الكلام لحسونة: هو الحاج فريد يعرفك منين؟

- حسونة (وهو يحاول المراوغة) هو فيه حد ما يعرفش الحاج فريد.

- أنا مش بقولك أنت عرفته إزاي؟ أنا بسألك هو يعرفك منين؟

- أصله بييجي البلد عندنا كتير، علشان كده هو عارف الست والدتي.

- برهومة : يا سلام يعني انت طلعت معروف، يا بختك يا سيدي طلع لك صيت ولا رقاصة بنت البلد.

أخذت المجموعة تضحك وهم يقولون: الله يجازيك يا برهومة، دا انت ابن نكتة صحيح.

(٢٠)

يدخل المعلم حمودة على محمد الورشة وهو ينادي : يا معلم محمد، يا هلاله، يا اللي هِنا.

يرد محمد : أيوا مين، اتفضل يا معلم حمودة، الدنيا منورة، إيه المفاجأة الطيبة دي!

حمودة: ومفاجأة ليه؟ هو أنا مش واجب أزورك وأطمئن عليك.

محمد : مقصدش، بس أنا مش متوقع إنك تسيب حبيبك الحاج فريد في وقت زي ده.

حمودة: ماهو علشان كده أنا جيت!

محمد : خير؟!

حمودة: أنا كنت رايح للشيخ سعيد أدعوه لحضور عقد قرآن بنت الحاج فريد، ولما لقيت الورشة مفتوحة قلت أبدأ بيك الأول وآهي فرصة أخدك معاياي لأن الشيخ سعيد بيعزك ولا ممكن يرفضلك طلب.

محمد : وأنا عيني لك وللحاج فريد، يلا بينا.

طرق محمد الباب، ردت فاطمة بصوت وقور.. مين ؟

- محمد حسن، ومعي المعلم حمودة، ممكن نقابل الشيخ سعيد.

- فاطمة (بصوت خفيض) محمد والمعلم حمودة اشمعنا؟ يا رب خير. اتفضلوا، اتفضلوا.

ذهبت فاطمة إلى والدها الذي كان يقرأ بعض أوراد المساء، أخبرته، قام واقفا، فتح الباب: اتفضل يا معلم حمودة، اتفضل يا محمد يا ابني، بقالك زمان يا راجل مزرتناش، عارف من امتى؟

حمودة: لا والله مش فاكر، الذاكرة خانتني، وبعدين دا من زمن طويل.

الشيخ: أنا فاكرها زي الشمس، كأنها النهاردة، كنت انت والحاج فريد، وكان معاكو المعلم حمدان، كنتو لسة شباب وجيتوا تشتكوا م الشيخ حسن إنه مجمّع الشباب حواليه، وإن الشباب بيحبه ويقتنع بكلامه، و...

حمودة (وقد قطع عليه كلامه) الله يرحمه، هو مات وذكره حاضر، وربنا يبارك ف محمد ابنه أهو خير خلف لخير سلف.

محمد : الله يبارك فيك يا معلم.

حمودة: صلي ع النبي يا شيخ سعيد.

الشيخ سعيد : وعليه أفضل الصلاة والسلام.

حمودة: بص يا سيدي انت طبعا عارف إن فرح بشرى بنت الحاج

فريد بعد بكرة، وهو قد ندبني مخصوص للقيام بدعوتك للحضور وإشهار عقد القرآن، ومحمد معك.

الشيخ سعيد : ألف مبروك، ربنا يتمم بخير، وعقبال سعد ابنك.

حمودة : يعني حتشرفنا إن شاء الله.

الشيخ سعيد: معلش يا معلم حمودة، اعذرني، انت عارف إنني مش بتاع الكلام ده، ولا الحاجات دي، وأكتر م الجامع أنا محضرش فرح، هو لو عمل الفرح ف الجامع كنت حضرت وباركت، لكن أنا علمت أن الحاج فريد جايب فُرجة، وطبل والذي منه، ودي حاجة البلد نفَّضت إيديها منها من زمان، ودي حاجة لا أنا بحبها ولا ربنا راضي عنها.

حمودة : يعني كده ! أنا كنت أطمع إنك تشرفنا.

محمد : بقى دا اسمه كلام يا معلم حمودة، بدل ما تاخد إيدك ف إيد الشيخ سعيد وتكلموا الحاج فريد يلغي موضوع الراقصات ده، تقوم تدعيه وعوزه يحضر كمان! انت ملكش حق، الراجل يودي وشه م البلد فين لو حضر، وهو اللي عمال يكلم شباب البلد على العفة وغض البصر. دا انت لو عملت كده يا شيخ سعيد تبقى فضيحة بجلاجل، ويصدق فيك قول القائل: إذا كان رب البيت بالدف ضارب، فشيمة أهل البيت كلهم الرقص.

حمودة : أنا على العموم عملت اللي عليّ وبلغت الرسالة وما على الرسول إلا البلاغ، بس أوعى تكون زعلان مني يا شيخ سعيد، أنا

مجرد وسيط خير.

محمد (يريد أن يتكلم) بس...

الشيخ سعيد (وقد تدخل في الحوار يريد إسكاته) بس المعلم حمودة نوّر، مش كده يا محمد.

محمد : طبعا طبعا.

حمودة : طيب أستأذن أنا.

الشيخ سعيد : لا والله الشاي الأول، فين الشاي يا فاطمة؟

فاطمة : جاهز يا أبي.

الشيخ سعيد يأمر محمد أن يحضر الشاي معتذرا بتنميلٍ أصاب قدميه: هات الشاي يا محمد يا بني.

لم يتوقع محمد الأمر، قام في تباطؤ، أخذ محمد الشاي من يد فاطمة، نظر إليها، غضت الطرف حياء منه.

- اتفضل يا معلم حمودة، اتفضل يا شيخ سعيد. شربا الشاي ثم انصرفا، المعلم حمودة في طريقه إلى منزله، ومحمد إلى ورشته كي يغلق بابها. نادى عليه الشيخ سعيد، بعد أن أغلقها: انت مكنتش عاجبني الليلة.

- ليه ؟

- ازاي ترفع صوتك على صوت المعلم بتاعك؟ انت مش عارف

إن دا عيب؟

– يجوز أنني انفعلت حبتين، بس الموقف كان يستاهل، ازاي الراجل ده اللي اسمه فريد يعمل فرح اسبوع كامل ويختمه بالمسخرة دي، وكمان عوزك تحضر، بذمتك دي مش حاجة تغيظ.

– الشيخ سعيد (وهو يكلم نفسه) الظاهرإنه خد من الشيخ حسن كل حاجه حتى غضبه: بص يا محمد يا بني، الأمر أكبر من المعلم حمودة، الحاج فريد دا راجل كله لؤم، عاوز ياخدني قنطرة قدام الناس، ياخد تصريح بالعهر على قفاي، عاوز يُجر رِجلي ويقول للناس كلها: آدي كبير البلد حضر الفرح، يبقى ناقص إيه.. لازم البلد كلها تحضر.

– يعني هوّا وخدك ستارة ؟

– بالضبط.

– ياة، ولما انت عارف كده مصرحتش للمعلم بكده ليه؟

– يا بني خاطبوا الناس على قدر عقولهم، المعلم حمودة دا راجل طيب، وإن كان الحاج فريد استغله في المهمة دي، فمش معنى كده اننا نهين الرجل، ولكن نوضح له بهدوء، ونقتعه برفق، ونكسبه بدلا من خسرانه، وانفعالك بالطريقة دي هو أكبر خطأ لأنه انفعال أعمي، وحماس غير محكوم، وأكبر ما يضر الدعوة العمل بغير فهم، والحماسة في غير بَصَر، والحركة في غير وعي، وتعجل التضحية في غير أوانها. عليك أن تتعلم كيف تكسب خصومك، فإن لم تكسبهم معك؛ تأمنهم عليك.

نظر محمد إلى الشيخ فرأى قامته في السماء، وقدميه في قلب الصخر، والنور ينبع منه فيضيء ما حوله، وإذا هو أمامه غِرٌّ صغير لم يبلغ بعد، فقال وهو يتمتم في نفسه: حقا إن الدعوة ليست نصوصا تتلي، ولا مواعظ تحفظ، إنما هي قدوة صالحة، وقيادة مبصرة قبل كل شيء.

(٢١)

الناس في الجامع الكبير يُعدون على الأصابع وقد صعد الشيخ سعيد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس.. فأين ذهب المصلون، أين ذهب المسلمون، هل هجروا بيوت الله بعد وصلها؟! هل استغنوا عن الله بعد افتقارهم إليه؟ هل وجدوا ربا غيره يرزقهم من حاجة، ويطعمهم من جوع، ويعلمهم من جهالة؟ أما والله حاشا وكلا، ولكنها الغفلة أصابت القلوب، والشيطان جثم على النفوس، فاتبعوا أمر كل ذي غواية وضلال. أيها الناس فليسأل كل واحد منا نفسه وهو يمتع عينيه من حرام.. أين ذهبت لذة الأمس؟ هل يجد منها بقية؟ أم زالت وخلّفت التوبة إن تاب، والمذلة والذنب الكبير إن لم يتب. أيها المسلمون جددوا البيعة مع الله تُصلَحوا، وتوبوا إليه تُفلَحوا. وإياكم والدنيا فإنها رأس كل خطيئة، وإياكم والهوى فإنه مفتاح كل شر، واحذروا شياطين الإنس وإن لبسوا لكم لباس التقوى.. يدّعون الصلاح وهم فسدة، ويزعمون التقوى وهم فسقة، ويرون أنهم الهداة وهم الضُلاَّل.

أيها المسلمون كل واحد منا رقيب على نفسه وبيته، فالرقابة الرقابة، والولاية الولاية، فإن كل واحد مسئول عما استرعى أحفظ أم ضيع. نسأل الله تعالى أن نكون ممن يحفظون ولا يضيعون، ويصلحون ولا

يفسدون، ويكونون مع الله لا مع الشيطان.. اللهم آمين، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

أنهى الشيخ سعيد خطبة الجمعة ثم جلس مكانه يختم الصلاة، وما أن انتهى حتى جاءه صوت من آخر المسجد لرجل مسن، ذو لحية بيضاء وقد اعوج ظهره: عجبك يا شيخ سعيد اللي بيحصل في البلد ده؟ البلد كلها نايمة ليلة إمبارح على الطبل والزمر وهز الوسط والهرج والمرج من كل شكل ولون.

رجل آخر : دا البلد بقت مسخره يا رجاله، والواحد خايف ينزل عليها غضب ربنا.

ثالث : كان المفروض منسكتش على كده، دا الساكت على الحق شيطان أخرس.

رابع : دا اسمه كلام برده...!

قطع الشيخ سعيد كلامه، بأن أشار إليه بالسكوت ثم واصل هو الكلام: يا أهل البلد، اللي حصل ده عيب كبير في وش البلد وأهلها واحد واحد، ودا عمره ما حصل حتى أيام الإنجليز الله لا يِعدْها، ومفيش اتنين يختلفوا إن دا منكر وربنا محرمه في كتابه، بس يا اخوانا إزاي نواجه المنكر؟ انتو عارفين اننا جهزنا وفد من أهل البلد، ورحنا نوصل رأينا للحاج فريد ونقوله مش عيب إنك تفرح، لكن العيب إنك تفرح بالشكل ده. ولكن انتو عارفين أننا لم نجده، وقمنا بتبليغ رأينا لصديقه المعلم حمدان. ودي كانت أول خطوة. والثانية أننا قمنا بتوعية

أهل البلد مرات ومرات بأن يحتضن كل واحد منهم ولده، ويحذره من عاقبة المعصية لله تعالى. ودا كان دورنا باللسان، أما بالقلب فما من واحد منا إلا وهو ينكر ذلك بقلبه. وإذا كان فرح الحاج فريد مَـر، فليست هذه هي المشكلة، بل الأهم من ذلك ألا يتكرر حدوثه ممثَّلا في شخص آخر.

أنهي الشيخ سعيد كلماته، ثم صرف الناس بلطف وحنكة، إلا أن بعض الشباب ظل واقفا أمام المسجد يتحدث:

شاب ١ : انتو مقتنعيين بالكلام اللي قاله الشيخ سعيد ؟

شاب ٢ : دي سلبية.. الراجل كان لازم يقول كلام غير ده.

شاب ٣ : كان لازم ناخد الشوم ونكسر الفرح علي اللي فيه، مينفعش مع الناس دي غير العصا.

إبراهيم : ولما الناس دول يمسكوا عُصيان هُمَّا كمان، والعُصيان تكسّر بعضها حنعمل إيه؟ وحنجيب عصيان منين؟ في الحالة دي كل واحد يضرب التاني بالروسية، والروس تكسّر بعضها، وتبقى جنازة يشبع الحريم فيها لطم، ليه؟ لأن الرجالة كلهم ماتوا.

شاب ١ : بس انت راسك جمدة يا أبو الروس.

شاب ٢ : عندك حق يا واد برهومة، لما الناس تكسّر بعضها علشان حاجة زي دي، مين اللي يصلح حال البلد، مش كده ولا إيه يا معلم محمد ؟

شاب ٣ : انت ساكت ليه يا محمد ؟

محمد : انتم عارفين الشيخ سعيد دا عمل إيه النهاردة.

برهومة : عمل إيه يا سيدي ؟

محمد : الراجل ده نزع فتيل الغليان من البلد، الراجل ده لو مكنش راجل حكيم، كان صب الزيت على النار وولعت البلد باللي فيها، لكنه لم يعالج الانحراف بمثله، ولا الشطط بمثيله، بل وازن بين الأمور لِما هو خير منها، ولم يستثيره قليل الشر إذا كان من ورائه جني كثير الفائدة.

برهومة : وما الفائدة في ذلك ؟

محمد : إن لم تكن من فائدة سوى فضح أصحاب النفاق، وتعريتهم أمام الناس فبها وكفى.

شاب ٢ : صدقت يا محمد فقد آن الأوان لنعرف من هو الصالح، ممن يدّعون الصلاح.

(٢٢)

جلس حمدان إلى فريد في داره بعد انقضاء العُرس وسفر ابنته – مع زوجها الذي يعمل ضابطا في الشرطة - إلى القاهرة.

حمدان : آدي احنا بقينا وحدانيين زي بعضنا يا حاج فريد، لا ولد ولا سند.

فريد: تعرف إن البيت فضي عليّ، "بشرى" كانت ملية البيت عليّا، أنا مش عارف ح عيش بعدها إزاي؟

حمدان : كان لازم تخليها تتجوز برة البلد، كان يجرى إيه لو سمعت كلامي وجوزتها لواحد من ولاد البلد، على الأقل كانت تبقى جنبك تونسك وتشيل ولادها.

فريد : انت عوزني أجوزها لواحد من اللمامة دول، دول كلهم جرابيع، ودي بلد عوزا الحرق من صغيرها لكبيرها.

حمدان : يعني م الواد ابن شلبية بنت ست أبوها المولود إمبارح، لحد الشيخ سعيد؟ وأنا وانت معاهم ؟ ربنا يسامحك.

فريد : أنا وانت مش منهم، انت طول عمرك صحبي وأخويا، إنما الشيخ زفت دا اللي عاوز مصيبة تخده ميرجعش منها.

حمدان : باين عليك قرفان منه.

فريد : دنا لو طلت أموته كنت أطلّع زمارة رقبته، وأخليه يحصَّل صحبه في تربته.

حمدان : وليه ؟ الراجل معملش فيك حاجة وحشة.

فريد : هو اللي عمله شوية، دي البلد كلها ثارت عليَّ من كلامه. يعني أنا هربت منه علشان مقبلوش وقلت خلاص حيلم الدور، يقوم يخطب عليّ ويثير الناس ضدي ! طيب يا أنا يا هو في البلد دي.

حمدان : انت عارف إنه لو كان عاوز يشعللها كان عمل كده، بس الظاهر إنه عمل خاطر للمعلم حمودة لما زاره في بيته.

فريد : اسكت، دا حمودة قرفان منه، مش هو وبس، وم الواد محمد كمان، شفته كان جي زهقان إزاي، وبيقول إن الواد محمد رفع عليه صوته قدام الشيخ زفت.

حمدان: علشان كده انت فرحان ومزئطط، أكيد يا عم، لأن اللي كان في دماغك اتحقق

فريد : قصدك إيه؟

حمدان : إن حمودة يكره محمد، وأهو ده اللي حصل، دا معدش بيقبله.

فريد: وأهي جت اللحظة اللي أنا منتظرها من زمان، نصب الزيت ع النار وتبقى ولعة، وآخد بتاري من عدوي.

حمدان : مش فاهم، تقصد إيه؟

فريد : النهاية قربت يا حمدان ياخويا، إنت فاكرني نسيت دم إنصاف بنتي؟ لأ؛ أنا عمري ما أنسى أبدا، واللي يديني قلم أديله عشرة، ومسبش حقي أبدا، حتى ولو حموت.

حمدان : انت ناوي تعمل إيه ؟

فريد :(وهو يحاول مداراه كلامه بتغيير مسار حديثه وتعبيرات وجهه) لا لا، أنا مش ناوي على حاجة، ما انت عارف، دا كلام ابن عم حديت، المهم قفِّل ع الموضوع ده، وقلي إيه أخبار ورشة محمد، م انت زرتها وشفت اللي فيها.

حمدان : هو انت مستني زيارتي، ما انت معاك الأخبار أولا بأول، شوف الواد "حسونة" قلك إيه؟ آه منك يا شيخ؛ شيخ إيه بس! دا انت شيخ منصر، وكمان دي عليك شوية، هو كان حد يتصور إنك تشغل جاسوس عنده يجبلك أخباره أولا بأول.

فريد : وشوف بقى، حمودة والواد محمد بلعوها زي الهبل. أنا طول عمري بقول عليهم مغفلين.

حمدان : طيب وإيه الأخبار؟

فريد : الورشة شغالة شغل من نار، وورشتنا أنا وحمودة مبتشتغلش بقرشين صاغ في اليوم حتى.

حمدان : هو انت ناقص فلوس.

فريد : عشان كده أنا مدي الطارشة، وسايب حمودة لحد ما ييجي ويقول حقي برقبتي، شوفلك صرفة ف الواد ده، ساعتها أعمل شهم وأنفذ اللي في دماغي.

حمدان : انت لسة فكرة الانتقام دي على بالك؟

فريد : انت عوزني أنسى إن محمد كان السبب في موت ابنتي، وإنه بينتقم لموت والده؟ إن كان أبوه نال جزاؤه؛ فحتما ولابد لازم إبنه يشرب من نفس الكاس.

حمدان (وقد بدا عليه الانزعاج) انت ناوي تقتله ؟!

فريد : لا دي قرصة ودن بس، علشان يتعلم ؟

حمدان : انت مش ناوي تجبها البر، وباين عليك ناوي تفضح سرنا، وساعتها محدش حينفعك، حتى ولو كان جوز بنتك ظابط.

فريد : أُمال انت فاكرني ناسبت الحكومة كده صدفة، كل شيء مرسوم له ومتخطط.

حمدان : ربنا يسترها، والمستور يفضل في الكتمان .

(٢٣)

يتميز "سعد" بن المعلم حمودة بأنه شاب طيب القلب، سليم الصدر، لا يُكِنُّ لأحد ضغينة، يحبه معظم أهل القرية، مع أنه من طبعه العزلة عنهم، وعدم الخلطة بهم إلا في حدود. وجهه وجهٌ طفولي ترتسم عليه أمارات البراءة. يتكلم بالسجية، ويعشق تراب الأرض، يرى في الطين أنه رحمٌ ولّادة، ينبت كل يوم بالجديد، ويرى في الريف أنه أصل البكارة ومنبع الخير. حبه للأرض جعل منه فلاح أصيل، محصوله وزراعته يُضرب بها المثل، ألذ لحظة في حياته تلك اللحظة التي يجني فيها ثمرة محصوله. إذا رأى أحدا يهمل في زراعته فكأنه تعدى على جزء منه، يذهب إليه، يذكره بحق الأرض عليه، فكما أنّ حقه عليها أن تنجب له محصولها الوفير، فحقها عليه أن يَفْلَحها ويخصبها بجيد البذور. كان سعد يحب والده ويحترمه وإن لم يشاركه عمله وورشته، وكان الأب يرضى عن ولده وإن لم يشاركه هو الآخر في فلاحته. ارتضى كل واحد منهم طريقته في الحياة دون خلاف أو تجاوز.

جلس سعد إلى والده هذه الليلة، وكان يبدو عليه الضيق والحزن.

سعد : مالك يا أبي، أنا شايفك متغير، خير فيه حد مزعلك ؟

حمودة : والله يابني الحال مش عجبني اليومين دول.

– إزاي ؟

– إنت عارف إن الورشة هي إدينا ورجلينا، وعلى حسها احنا عايشين، وأهي الأشية كانت معدن والحمد لله. لكن بعد ما محمد فتح ورشته، الخير قل ولما يطلع نصيب الحاج فريد ما يبقاش لنا حاجة تنفع، فإيه العمل وندبرها إزاي ؟

– والأرض يابا (نطقها سعد بفخر وكأنه ينطق بأحد المسلَّمات) تروح فين، دي الأرض تدي خيرها للي يديها، وأوعي تفكر إننا في يوم حنعوز ولا نمد إدينا، وطول ما ربنا سترنا بالفدانين اللي حيلتنا متشلش هم، دنا ممكن كمان أأجر فدان ولا تنين، وشوف ساعتها وضعنا حيكون إيه! أنا عوزك بس كده تفرفش وتروق، وبكرة تحلى وتبقى تمام.

– أنا يا بني اللي حز في نفسي ومزعلني، هو إن محمد اللي زي ابني، واللي كان صبي عندي، توصل بيه الجرأة إنه يرفع صوته عليّ.

– يآبة هو محمد مش جه صالحك واعتذر لك، وقالك إن اللي حصل ده تم من غير قصد. وبعدين محمد ابن حلال وميعملش كده، والدليل إن الراجل مكدبش خبر وجه يصالحك بعدها. وبعدين يا سيد الكل ما تقلقش الموضوع اللي قلقك عندي له حل.

– وحتحله إزاي ؟

– سيبها على الله، انت بس اتفضل نام، وخلي اعتمادك على مدبر الأكوان.

– ونعم بالله يا بني.

(٢٤)

رجع محمد إلى البيت مبكرا هذه الليلة يحمل في يديه قطعتين من القماش إحداهما لأمه، والأخري لأخته. وكان معه سلة فيها بعض الفاكهة، وطبق من الهريسة التي تحبها أمه.

أمينة : إيه دا كله، إيه دا كله، دا احنا اتغنينا ونغنغنا ولا الأكابر.

الأم : إيه يا محمد يا بني كل ده ؟! جايبه منين؟

محمد : من عند القمَّاش، والفكهاني، وحلواني البندر.

أمينة (وهي تضحك) والله، وحاجتهم حلوة كدة، طيب ياخي معرفتناش من زمان ليه.

الأم : أنا بسألك منين؟ رد عليّ بصراحة.

محمد : انت ناسيا إننا دلوقت أصحاب مِلك، وربنا مبارك في الرزق، طيب منوسعش علينا ليه ؟!

أمينة : وسَّع كمان وكمان، أهو دا الكلام ولا بلاش.

الأم : أنا كان بدي منصرفش أي مليم من الورشة إلا لما تشيل نفسها؟

محمد : الحمد لله يا أمي احنا بقلنا سنة شغالين، وربنا كرمنا واللي

حطناه في الورشة جاب زيهم، وآدي يا ستي كمان ألفين جنيه أهُم خليهم معاكِ للزمن، وكمان لو كنت استلفتِ حاجة من حد يا ريت نردهم له.

الأم وقد نظرت إلى محمد نظرة تعجب ودهشة: احنا عمرنا ما استلفنا حاجة من حد، والفلوس اللي بدأتْ بيها الورشة فلوس أبوك الله يرحمه، كان شيلها لوقت الطلب.

محمد : وكان شايلها مع مين؟

الأم : أمانة عند واحد ابن حلال، ولما حضر وقتهم جبهم.

محمد : يعني اعترفت إن الشيخ سعيد ابن حلال، طيب الحمد لله.

الأم (وكأن عيارا ناريا أصابها في مقتل) إلتفتت إلى محمد، نظرت إليه نظرة حنق شديد، وكأن الشرر الذي أصابها ناره يتقافز وميضه من عينيها فقالت على الفور : انت قصدك إيه ؟

محمد : أنا عرفت كل حاجة يا أمي.

الأم : وإيه اللي عرفته بالظبط.

محمد : خالي حكا لي عن كل شيء، بدءا من خطوبتك للشيخ سعيد التي لم تتم، حتى وفاة والدي، مرورا بتفاصيل كثيرة.

الأم : وقد أشاحت بوجهها عنه: يعني رحتْ له، وطبعا صدقته في كل اللي قاله، آه يا ميلة بختك يا عنايات، وأنا اللي فكرة إن السر

اللي مخبياه عنك عشرين سنة حييجي اليوم اللي تسمع مني وأفهّمك، وأقولك على أعداء أبوك علشان تخلص منهم واحد واحد، اسكت يا محمد اسكت.

محمد : يا أمي، إن كنت تتصورين أن للشيخ سعيد يد في مقتل أبي فهذا خطأ، مين ممكن يتصور إن صديق عمره يغدر بيه !! مين ممكن يتصور إن الصحبة على هدى، والأخوة على إسلام، والعهد على الإصلاح ممكن أن ينقلب إلى الضد؟ إن هذا ممكن أن يحدث مع غير الدعاة إلى الله؛ أما الدعاة فلا، أبدا لا يحدث، أنا عندي يقين بذلك

أحست الأم أن جبل الثلج المتراكم لسنوات عدة، انصهر في لحظة من السخونة المفرطة. وأحست أن الحبل المتماسك بينها وبين ولدها يرق كل يوم حتى قطعه اللحظة. أحست كما لو أنها سقطت من علياء جبل فتحطم كل شيء فيها، لم تتمالك نفسها، ولم تُرِد أن تشعر أبنائها بتلك الهزة التي أصابتها، أردات أن تحتفظ لنفسها ببعض الكبرياء بعد أن دمر محمد أكثره، قفزت إلى حجرتها فأغلقتها بابها، ثم ارتمت على السرير مهدودة القوى، مسلوبة الإرادة، فاقدة للوعي.

أسرع محمد ورائها، يطرق الباب يريدها أن تفتح له، يريد أن يطمئن عليها، انفجرت فيه أمينة بصوت مرتفع: انت عاوزها كمان تفتحلك، ياخي حس بقي، خلي عندك دم، مكنتش أحسبك بالغلظة دي، حبك لفاطمة بنت الشيخ سعيد يخليك أعمى بالشكل ده، وتدبح أمك بالصورة دي.

محمد (وقد تعجب لجرأة أخته عليه لأول مرة): وهو اللي يصارح والدتك بالحقيقة يبقى غلطان ؟!

أمينة : انت مش كنت بتصارحها؛ انت كنت بتنتقم منها. انت عارف انت عملت إيه؟!

انت هدمت الحلم اللي أمك غابت طول العمر تبنيه، وعايشة علشان يوم تشوفه، وإن كنت فاكر إن الموضوع ده حيعدي كده بالساهل زي غيره، تبقى غلطان، فوق لنفسك بقى وكفاية أوهام.

أحس محمد أن كرامته قد أهينت على يد أخته التي حدثته بتلك الصورة التي لم يعهدها من قبل، وأحس لأول مرة أن كلامها ربما يكون فيه كثير من الصحة، وبأنه ما كان ينبغي عليه أن يصارح والدته في أكبر موضوع في حياتها بهذه الصورة البلهاء الساذجة، لم يستطع محمد أن يقف أمام باب حجرة والدته الذي يغلق بابها أمامه للمرة الأولى في حياته، ولم يستطع أن يقف أمامٍ قامة أخته التي أحس بأنها تعلوه بأفلاك وأفلاك. أحس أن شواكيشاً تطرق رأسه، وأن صدرة يضيق، ونَفَسَه يتعثر بداخله، فأطلق ساقيه للريح ليذهب إلى المكان الذي يجد فيه راحته، لعله يرى نفسه على حقيقتها في مرآة لا تكذب، انطلق محمد نحو المقابر في ظلمة الليل.

(٢٥)

كانت هذه الليلة شديدة الظلمة، وكان محمد لا يزال في طريقه إلى المقابر، عوقه الظلام والتفكير فجلس على شط الترعة تتقلب الصور في مخيلته. وهناك في البيت كانت أمه وأخته كلتاهما مستيقظتان لا تستطيعان النوم كلٌ في حجرته. وإذا بصوت صراخ يهز أركان الليل، وصوت صفير يستنفر النائمين لحدث جلل، وأصواتٌ هنا وهناك تجوب الطرقات في نبرات حادة واضحة لا لبس فيها: حرررريقا، حريييقة، حريق يا ناس، حريق يا رجالة، حريق يا خلق هُو.

انطلق الناس أفواجا مفزوعة صوب الصفارات والدخان الذي بدأ يتصاعد وتُرى نيرانه.

الأم وقد انطلقت هي وابنتها نحو الشارع تستوقف أحد الناس وهو يجري : هي الحريقة عند مين ياخويا ؟

بيقولوا في بيت الشيخ سعيد.

الست عنايات : يكون محمد عملها ؟! مش معقول، ابني ما يعملش كده.

ظلت الأم تجري بأقصى قوة لديها مع المتسابقين حتى وصلت بيت الشيخ سعيد، رأت أن واجهة البيت سليمة، وأن الحريق تشتبك ألسنة

نيرانه في الورشة نفسها مع الجزء الخلفي من بيت الشيخ.أخذ الرجال ترافقهم النساء يطفئون النيران الملتهبة، النساء يحملن الماء من أقرب ترعة ومن طلمبات المياه، والرجال يقتحمون النار ويسكبون من عرقهم وهمتهم ما يطفئ نار الغابات. كان محمد في قلب الورشة وسط الحطام المحترق ومعه برهومة ومجموعة من شباب القرية يتقدمهم جميعا في قلب النار الشيخ سعيد وقد حسر عن جسمه الثياب ولا يعبأ بلسع النار أو وهجها. وبعد ما يقرب من الساعة إنطفأت النار وجاء وقت البحث عن أي جذوة مشتعلة تحت الحطام المتكوم، وكان الأسلم أن يقوم الشباب بإخراج محتويات الورشة إلى خارجها وتمييز السليم الذي لم تصبيه النار عما احترق وانتهي أمره، وتبين لهم بهذا أن أكثر من نصف الورشة قد احترق، مع جزء بسيط من مؤخرة بيت الشيخ سعيد..

كانت الست عنايات في هذا الحدث ما بين مشارك بقوة ومراقب بتمعن، ففي الوقت الذي كانت تحمل فيه الجراكن والطشوط الممتلئةً بالماء مع الصبايا ومنهم فاطمة وأمينة، كانت تراقب عن كثب حركات محمد والشيخ سعيد. وقد أذهلها وقوف الشيخ سعيد مع محمد في الورشة يطفئ ما اشتعل من نيرانها تاركا بيته تشتعل فيه النار، وهالها ما رأت منه من جرأة واقتحام للنار دون خشية، في الوقت الذي يأمر محمد فيه بالإبتعاد عن مناطِق الخطر التي يتقدمها هو، وأدهشها أكثر أن رأت الشيخ سعيد بعد أن أُطفئت النار يحتضن محمد ويضمه إلى صدره وهو يهدئ من روعه بقوله: معلش يا محمد يا ابني حصل خير، قول الحمد لله. ومحمد مستسلم له، ولا ينطق بكلمة.

كما أدهشها أيضا ما قامت به فاطمة، وهي تنطلق في قوة وسرعة تحمل الماء ثم تقذفه بنفسها على ألسنة النيران الممتدة دون أن تسلمه لأحد من الرجال، وهي في ذلك تستنهض عزائم أقرانها من النساء بألفاظ ملؤها الهمة والعزيمة، لدرجة أنها كونت منهن مجموعة عمل منظمة تسلم إحداهن الماء لغيرها وهكذا في خط منظم يبدأ بالواقفات بجوار منبع الماء وصولا إلى مكان الإطفاء. ثم لما انتهى الحدث ربتت على كتفيها وأمينة وهي تقول معلش يا خالة، الحمد لله، قدَّر ولطف، المهم إن محمد بخير، الباقي كله يهون ويدَّبر.

ولما أُطفئ الحريق، وأخمدت جذوات نيرانه المشتعلة، واطمأن الكل أنه لا عودة لاشتعاله مرة أخرى. قام الشيخ سعيد يشكر الناس ويصرفهم: جزاكم الله خيرا ياإخوانا، ألف شكر، ربنا يكرم الشباب ويبارك فيهم. ولولا أنتم جميعا لأمتد الأمر إلى مالا تحمد عقباه، لكن الله سلّم، الحمد لله على كل حال.

بعض الناس : الحمد لله يا شيخ، قدَّر ولطف.

برهومة : أنا بس نفسي أعرف مين اللي عمل كده، أنا كنت أطلَّع روحه في إيدي، وأولع فيه بجاز وسخ زي ما ولَّع فينا ابن الكلب.

الشيخ سعيد : الكلام ده مش وقته، بعدين نتكلم في الموضوع ده، دلوقت كل واحد يروح لحاله، يغسل نفسه ويستعد لصلاة الفجر وأهو كفاية عليه الدعاء اللي يخده في الصلاة، وربنا ينتقم من الظالم.

انصرف معظم الناس ولم يبق إلا عمال الورشة، ومحمد وأهله

وغيرهم قليل.

الشيخ سعيد : يلا يا محمد يابني خد أختك والست والدتك وروح ع البيت واحمد ربنا وقول الحمد لله على كل حال، وانت يا برهومة معاه لحد البيت.

أخذ محمد والدته وأخته وهموا بالإنصراف وهم صامتون دون أن ينطق أحدهم بكلمة، كلٌ يفكر فيما حدث في هذه الليلة أولها وآخرها.

(٢٦)

جلس محمد مع مجموعة من الشباب يتوسطهم الشيخ سعيد، بعد أن أنهوْ عملية إزالة مخلفات الحريق، وحصر ما بقي سليما من عدة الشغل والصالح من الموبيليا التي يلزمها قليل من الدهان ثم ترجع لحالتها.

برهومة : أمّا لو أعرف مين اللي عمل كده ؛ أنا كنت أروح فيه اللومان.

محمد : المشكلة إنه اختار التوقيت المناسب، الورشة مليانة والشغل كان حيتسلم بعد أسبوع.

سيد : يعني ضربة في مقتل، كان عوزها تبقى موته وخراب ديار.

حسونة : نفسي أعرف بس عمل كده إزاي وليه ؟

الشيخ سعيد : يا اخوانا المشكلة دلوقت مش في اللي حصل، المشكلة في اللي حيصل، المفروض نفكر حنعمل إيه ؟

محمد : من رحمة ربنا إن الركن اللي كان فيه العدة مصابوش حاجة، وكل اللي اتحرق الخشب، وطلبية عم سعدون وطلبية المعلم زعتر ودي كانت المفروض تتسلم بعد أسبوع

برهومة : ودلوقت حنجيب خشب منين، والورشة عوزة توضيب

وإصلاح من أول وجديد

سعد (ابن المعلم حمودة وقد كان له دور كبير في إطفاء الحريق، ومجالستهم للبحث عن حل للأزمة): صلي ع النبي يا أبو حميد، أنا بمدلك إيدي، نحط إدينا في إيد بعض ونضم الورشتين على بعض، وأدي ألفين جنيه عربون محبة ومشاركة في المحنة، وإحنا طول عمرنا أخوات.

الشيخ سعيد : بتقول إيه يا سعد يا ابني؟

سعد : بقول إن الوالد سِنه كبر وأنا عاوز أريحه، وبعدين أعذرني الورشة من يوم ما سيبتها دخلها بقى على قده، فأنا بمدلك إيدي في محنتك النهاردة وانت تشلني بكرة، انت تشغَّل ورشتك وورشتي واللي ربنا يكرم بيه يبقى الرزق للجميع.

محمد : والمعلم حمودة يعرف الكلام ده.

سعد : خليه سر بينا دلوقت، والشغل اللي يجيلك أو يجيلي نشترك في التصنيع سوا وكل واحد يسوَّق بطريقته.

الشيخ سعيد : فيك الخير يا سعد يا ابني، حقيقي ابن الراجل الطيب، مد إيديك في إيده يا محمد وقول موافق.

محمد : إيه رأيك يا برهومة ؟

برهومة : سعد بيعرض عليك ألفين، وآدي ألفين كمان مني يبقو أربعة آلاف.

محمد: يعني موافق ؟! طيب، وكمان ألفين من معايا وربنا يبارك، والبركة مع الجماعة، ونبدأ صفحة جديدة.

الشيخ سعيد : أيوا كدة يا رجالة ذكرتموني بعهد الصحابة، اللي ف إيديك بتاع أخوك، واللي مع أخوك هّوا لك " من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له.."، هي دي الأخوة في أروع صورها. انتم يا ولاد أمل الأمة وتوحدكم وتكاتفكم هو سر نجاحكم " ولا تنازعو فتفشلوا وتذهب ريحكم ".

محمد : فاضل نقطة متكلمناش فيها.

سيد : وهي إيه ؟

محمد : يوميتك انت وحسونة وسيد، دي ماشيا زي ماهي، من غير تغيير لحد ما نبدأ الشغل.

الثلاثة في صوت واحد : والله ما ناخد ولا مليم لحد ما الورشة تقف على رجليها.

حسونة : ودا اسمه كلام يا راجل، دا حتى يبقى عيب انت بتشتمنا ولا إيه.

محمد : انت بالذات يا حسونة راتبك ماشي، علشان ظروف والدتك وأخواتك.

حسونة : بس..

محمد : مفيش بس، انتو لسة حتتكلموا، يلا ورانا شغل موت.

(٢٧)

انتهز الشيخ سعيد فرصة انصراف محمد مبكرا من الورشة لهذا المساء ثم انطلق إلى إبراهيم قبل أن يغلق الورشة.

الشيخ : السلام عليكم يا معلم برهومة.

برهومة : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، اتفضل يآبا الشيخ، أهلا بيك، دا محمد لسة ماشي يدوب من دقايق.

الشيخ : أنا عارف، أنا جي لك انت مش محمد.

برهومة (وقد وضع ما في يده من عده الشغل مندهشا) خير يا مولانا؟

الشيخ (وقد حدق فيه بناظريه) تفتكر مين اللي عملها ؟

برهومة (وقد راعته نظرة الشيخ) انت بتشك فيّ ولا إيه ؟

الشيخ : لا يا ابني العفو ربنا يبارك فيك، بس الموضوع وما فيه أنني أعرف أنك أقرب واحد من محمد، وزي منت شفت، فيه خطر قريب من محمد، وفيه حد عاوز يصيبه بسوء، وإن كان محمد مش في دماغه الكلام ده، فلازم اللي حواليه يخلوا بالهم منه وعينيهم عليه.

برهومة : مين كان يصدق إن محمد اللي بيحب الخير لكل البلد

يحصله كده !

الشيخ : يابني الدنيا فيها الخير وفيها والشر، وزي ما واحد بيحب عشرة بتكره، بس النهاية لا تكون إلا لأهل الخير.

برهومة : بس نفسي أعرف مين اللي له مصلحة في كدة ؟

الشيخ : تفتكر مين ؟ انت عندك شك في حد ؟

برهومة (وهو يفكر) والله يا شيخ سعيد أنا معنديش شك في حد، بس...

الشيخ : بس إيه ؟

برهومة :.. لأ، لا مش معقول، حرام الواحد يظن في حد من غير دليل.

الشيخ : قد يكون الشك مفتاح للتيقن، ومادام الشك يُعرض على العقل، ولا يصحبه إلا سلامة الطّوية فلا تخافن منه الضرر، وربما ما نظنه شك مذموم يكون فيه الخير المستحسن. انت شاكك في مين ؟

برهومة : هو مش شك بالمعنى اللي في دماغك، هو عدم راحة. بصراحة كدة، من يوم الواد حسونة مشتغل معانا وأنا كده مش مستريح له، وخاصة كمان لما لقيت له علاقة بالحاج فريد.

الشيخ (وقد انتفض واقفا وقد تغيرت علامات وجهه) فريد !! وإيه دخل فريد بالموضوع، إيه الحكاية قلي؟ قول بسرعة، انت ساكت ليه؟

برهومة : لا حكاية ولا حاجة، لما كنا في الفرح، الحاج فريد كان بيسأل حسونة عن حال أمه واخواته، فأنا استغربت منين يعرفه، هو وأمه وأخواته !

الشيخ : انت مش قلت من يومين إن اللي حرق الورشة اختار توقيت صعب، وقت م الورشة مليانة بضاعة. وإن الحريق صاب الجزء المليان م الورشة اللي فيه طلبات الزباين.

برهومة (وقد وضع يده على رأسه) يعني اللي عمل كده كان عاوز يعجِّز محمد قدام الزباين، ويوقفه عن الشكل.

الشيخ : مش بس كده، كان عارف إيه اللي جوا الورشة بالضبط ومكانه فين وعلشان كده نشن عليه صح.

برهومة : يعني قصدك إن اللي عمل كده الواد حسونة ؟

الشيخ : لا يابني إياك والتهمة، فلا تتهمن أحدا إلا بشبهة ودليل، احنا بس بنحكّم العقل في الموضوع، والمسلم لازم يكون كيِّس فطِن، ويجب أن لا يلدغ من جحر إلا مرة، ولا تتكرر.

برهومة : ع العموم أنا ححط الواد ده تحت المراقبة، وأشوف إيه حكايته بالضبط.

الشيخ : وأنا من يمتي، حروح بلدهم، وأسأل هناك أشوف حكايته إيه.

انصرف الشيخ سعيد، وقد توارد على ذهنه عشرات الصور لعشرات

المواقف للحاج فريد طيلة مراحل عمره، وكيف كانت كراهيته للشيخ حسن ومواجهته له، وكيف أصبح ثريا هكذا في مدة يسيرة، وكيف أن معظم مشاكل البلدة ترجع بالضرورة إليه، وكيف، وكيف..

الشيخ سعيد : والله باين نهايتك قربت قوي يا فريد.

(٢٨)

أمينة جالسة مع والدتها الست عنايات حول مائدة الغداء في المنزل بينما محمد في ورشته.

الست عنايات : عجبك يا أمينة اللي محمد عمله في الليلة المشئومة دي؟

أمينة : والله يا ماما أنا عارفة إن محمد زودها شويتين، وكان لازم ياخد الموضوع واحدة واحدة بالتدريج.

عنايات : يعني انت معاه في كل اللي قاله؟

أمينة : رغم إن محمد فاجأني بالموضوع من أوله لأخره، لكن لما فكرت فيه، لقيت إن محمد جايز يكون معاه الحق، الشيخ سعيد طول عمرنا نسمع إنه راجل طيب. جايز يكون ده الظاهر لنا، لكن بصراحة كل أهل البلد بيشكروا فيه، والدليل على كده إنه مكلش فلوسنا.

الأم : لأن فيه وصلات أمانة وورق مكتوب.

أمينة : ومين اللي صمم يكتبه على نفسه؟ وبعدين الفلوس اللي أعطاها لنا أكتر من اللي في الشيكات، لأنه أعطانا المال بأرباحه.

الأم : انتو متعرفوش حاجة، كلكوا ما تعرفوش حاجة.

أمينة : وإيه بس اللي منعرفوش؟

الأم : إن الشيخ سعيد كان بيحبني، وكان عاوز يتزوجني، ولما محصلش نصيب بيَّت في نفسه إنه يؤذي الشيخ حسن بأي طريقه، ومن يومها وهو يتحين الفرص علشان يضره بأي طريقه، لحد ما سنحت له الفرصة وكان اللي كان.

أمينة : جائز أنه كان متعلق بيك، جايز يكون حبك، بس اللي أعرفه إن اللي يحب عمره ما يكره، ولو كان بيكره صحيح عمره ما يقدر يتصنع الحب ويبينه قدام الناس، الحب فطرة تفصح عن نفسها بلا زينة أو رطوش، انت مشفتيش الشيخ حسن وهوا واخد محمد في حضنه كان شكله ازاي، فيه حد في الدنيا شاف المنظر ممكن يقول إن اللي حصل ده مزيف أو مصطنع، مشفتيش الدموع كانت في عينه ازاي، مشفتهوش كان في وسط اللهيب مش خايف من النار بيطفي في ورشتنا وسايب بيته، ويحط نفسه في قلب الخطر علشان يبعد محمد عنه. أظن لو حكيتي لي ألف حكاية من زمان مش ممكن أصدق غير اللي شفته عيني في الليلة دي .

الأم (وقد قامت وتركت المائدة) : خلاص بقى فضوها سيرة، قومي وشيلي الأكل ده، أنا دخله أنام.

(٢٩)

الحاج فريد وقد علم بمرض المعلم حمدان الشديد فذهب إليه ليزوره في بيته.

فريد : إيه يا راجل يا عجوز، باين عليك حتودع ولا إيه؟

حمدان : كويس إنك جيت، لولا إني تعبان مش قادر أتحرك كنت اتعكزت وجيتلك ضروري.

فريد : ياه الموضوع مهم بالشكل ده ! إيه يا ترى حتوصيني وصية الوداع.

حمدان (وقد أشار لزوجته) روحي اعملي لنا شاي.

انصرفت الزوجة وبقيا سويا على انفراد.

حمدان : دي عملة تعملها يا راجل ؟!

فريد : تقصد إيه ؟

حمدان: تولع للواد الغلبان في الورشة، مصدر قوته ورزقه الوحيد. حرام عليك يا شيخ، أوعى تكون عاوز تفهمني إن الموضوع ده مش خارج من تحت إيدك.

فريد : ياخي حرام عليك، أنا أعمل كده، طيب وأنا مصلحتي إيه ؟

حمدان : اللي يقتل يعمل أي حاجة تانية، مش كفاية قتلت الشيخ حسن زمان، عاوز تعمل إيه ف ابنه النهاردة!!

فريد (وقد نظر إليه نظرة هي أقرب إلى التهديد والوعيد) انت خرَّفت ولا إيه يا حمدان، ما تصحى لنفسك كده وتشوف إيه اللي بتقوله.

حمدان : أنا صاحي كويس وعارف بقول إيه، واوعى تكون فاكر إنك ممكن تضحك عليّ، لا دا احنا دفينيه سوا، ولا نسيت اللي جرا، إن كنت نسيت يا صاحبي أفكرك. أنا خلاص مش خايف من حاجة، لا ليّ ولد أخاف عليه، ولا عمر أسابق الزمن عشانه، يلا خلاص أقابل وش كريم وأنا ف دفتري حسنة واحدة أتمسَّح فيها.

فريد : انت زعلت ولا إيه ! يا راجل، دنا بهرج معاك، علشان ما حبيت أسري عنك وانت تعبان، دا انت قلبك اسود. وهو يعني كل مصيبة تحصل في البلد يكون فريد سببها، أمال الشياطين بتعمل إيه، وخدة أجازة يعني؟

حمدان : أنت كبير الشياطين، وإذا كان إبليس كبير شياطين الجن، فانت كبير شياطين الإنس في بلدنا.

دخلت الست حسنية عليهما بالشاي، وقد ترامى إلى سمعها نعت حمدان لصديقه بالشيطان.

فريد: الله يجازي شطانك يا حمدان، عجبك كده يا حاجة حسنية جوزك بيلخبط في الكلام وبيشتمني في بيته، علشان خاطرك انت أنا

مش حقوله حاجه.

حسنية : انتو طول عمركم اخوات، هو فيه حد بيزعل من أخوه، ودي مش عشرة يوم، دي عِشرة عُمر بحاله.

فريد (وهو ينظر بطرف عينه إلى حمدان بينما يوجه الكلام إلى زوجته) : حمدان باين عليه عاوز يبيع العيش والملح اللي أكلناه سوا.

حمدان : كان عيش مغمس بالطين، والألم، والخوف، طول عمري خايف، كنت أنام مغمض عين ومفتح عين زي الديابة، أنا خلاص تعبت، نفسي أستريح، نفسي أغمض، نفسي أكفَّر عن اللي عملته.

فريد (وقد قام يربت على كتفه ويهدئ من انفعاله) اهدى بس يا حمدان، أنا عوزك تريح نفسك علشان تخف، وأما تقوم بالسلامة كل شيء حيبقى تمام.

حسنية : دا حتى رافض ياخد الدواء.

فريد : ودا اسمه كلام، بسرعة هاتيه وانا أعطيه له.

أحضرت حسنية الدواء، قام فريد بإعطائه له بعد مقاومة بسيطه منه، انتظر قليلا حتى راح في النوم، ثم وعد زوجته بأن يمر عليه في الغداه ليطمئن عليه.

(٣٠)

حمدان على فراش المرض يتألم تألما شديدا، انتفخت عيناه، وكبرت بطنه، واحتبس البول بداخله. لا يستطيع النوم، وقد أحضروا له طبيبا من المركز فقام بتركيب قسطرة له لتسريب البول، ومازال يفحصه ويشخص حالته.

زوجته حسنية : خير يا دكتور، حالته إيه بالضبط، دا بقاله أسبوع تعبان ومبينمشي خالص.

الطبيب : التشخيص الظاهري يا حاجة بيقول إن فيه حاجة في الكلى، لكن علشان أأكد حالته ودرجته محتاج أعمله تحليل وظائف كلي وأشعة تليفزيونية على البطن والحوض.

حمدان : دي مش كلية تعبانة، دا ذنب ربنا بيخلصه مني، دا ذنب الشيخ حسن، طول عمري خايف من اليوم ده، خايف إنه ييجي اليوم اللي ربنا يخلص مني ذنبه اللي ف رقبتي. كان أوله الحرمان من الخِلفة، ودلوقت أدي النهاية المنتظرة.

حسنية : باين عليه بيخطرف يا دكتور.

الطبيب : سوف أعطيه حقنه تريحه حالا.

الحاج فريد وقد دخل عليهم والطبيب يعطي له الحقنة: السلام عليكم يا دكتور إيه أخباره

الطبيب يهمس في أذنه: والله حالته سيئة للغاية، دا فشل كلوي ومحتاج لرعاية.

فريد : من مية لعشرة آلاف، أنا رقبتي سدادة، دا أخويا وصحبي.

الطبيب : والله يا حاج فريد هو محتاج يروح مستشفى ضروري للرعاية والعلاج.

فريد : اللي تشوفه يا دكتور. ممكن نوديه إمتى.

الطبيب : ظبط ظروفك واديني خبر أقابلك في الساعة اللي انت عوزها، ع العموم أنا بكرة موجود من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة صباحا، ويا ريت بسرعة ومن غير تأخير.

انصرف الطبيب بعد أن ودعه فريد وأعطاه الحساب، ولم ينس أن يسأله عن مدى خطورة الحالة، فأخبره بأنه إذا لم يحضر لعمل غسيل كلوي في العاجل القريب فربما أدي ذلك إلى الموت المحقق.

دخل فريد إلى الحجرة التي ينام بها حمدان فقال لزوجته: الدكتور بيقول إن كلها يومين وتبقى حالته كويسه، وبعدين لو استمر تعبان حنوديه المستشفى، وإن شاء الله كله حيبقى تمام.

حسنية : ربنا هو الشافي المعافي. واحنا بإدنا إيه غير ندعيله.

جلس فريد ينظر إلى حمدان وهو على سريره ذاهب في النوم يحدث نفسه بهذه الكلمات : آه يا حمدان نهايتك قربت، والسر اللي طول عمري خايف إنك تظهره باين عليه حيموت ويندفن معاك، آه يا حمدان ياما نفسي أحس بالأمان من يمتك.

(٣١)

استيقظ حمدان من نومه بعد المغرب لهذه الليلة، أخذ يتمتم بهذه الكلمات: خلاص، الكابوس دا لازم أتخلص منه، لازم أكفَّر عنه، أنا قررت خلاص ومش ممكن أتراجع، يا حسنية، يا حسنية.

سمعت حسنية ندائه، جاءت مسرعة إليه: خير يا حاج، اللهم صلي ع النبي دا انت خفيت خلاص، الحقنة فوقتك خالص.

حمدان : أيوا أنا فقت خلاص، يا ريتني فقت من زمان، ما كانش ده حصل ولا جرى.

حسنية : انت بتقول إيه يا حاج ؟

حمدان : مفيش، خليكِ معايا، أنا عوزك تروحي دلوقت حالا للشيخ سعيد رضوان، استنيه في العطفة اللي في سكة البيت، زمانه طالع دلوقت من صلاة العشاء رايح بيته، قولي له إن حمدان عوزك ضروري ولازم تجيله حالا، الأمر ميستناش للصبح، واوعي حد يشوفك خاصة فريد.

حسنية : طيب وانت عوزة في إيه يا حاج ؟

حمدان : اسمعي اللي بقولك عليه وبس، قومي يلا، متغبيش عليّ.

صدعت حسنية لأمر زوجها، وانصرفت تغطيها ظلمة الليل إلى أن

وصلت المكان المحدد فوقفت تنتظر مَقْدِم الشيخ سعيد من المسجد. وبينما هي واقفة إذ رآها حسونة وهو في طريقه إلى بيته بعد أن أنهى عمله في الورشة.

حسونة : خير يا خالة حسنية، انت واقفة هنا كده ليه في الساعة دي.

حسنية : حسونة ! ازيك يا ابني جاي منين كده ؟

حسونة : جي من الورشة، كان عندنا شغل كتير قوي النهاردة.

حسنية : مش الورشة في بيت الشيخ سعيد.

حسونة : أيوا، بتسألي ليه ؟

- ألا انت مشفتوش وانت جاي كده ؟

- مين.. الشيخ سعيد؟ لا ما انت عارفة إنه بيصلي المغرب في الجامع الكبير، وبينتظر حتى العشاء ثم يأتي بعدها.. زمانه على وصول هو انت عوزاه ليه ؟

- لا، كنت عوزاه في سؤال كده، روّح انت يلا عشان متتأخرش.

انصرف حسونة وهو يحدث نفسه.. سؤال! سؤال إيه اللي الست حسنية عوزة تسأله للشيخ الساعة دي، أكيد إن في الموضوع إنَّه، وبعدين يا واد يا حسونة، باين سرك حيتكشف ويعرفوا الموضوع، انت تروح للحاج فريد وتحكيله على اللي شفته يمكن تكون عنده إجابة.

ذهب حسونة يبلغ فريد ما قد رآه، بينما وقفت حسنية في انتظار

الشيخ سعيد الذي ما إن حضر وأبلغته إلا وأسرع على الفور يلبي نداء المعلم حمدان خاصة وقد ترامى إليه نبأ مرضه وما ألَّم به.

الشيخ سعيد : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا حاج حمدان، ألف سلامة عليك يا راجل، شفاك الله وعافاك.

حمدان : خلاص أنا بقيت رِجل جوة ورِجل برة، واللي جوة أكتر م اللي برة ويلا حسن الختام.

الشيخ : يا راجل متقولش كده، بكرة إن شاء الله تقوم وتصبح بعافيتك وصحتك، دي سحابة صيف وتعدي.

حمدان : اسمع يا شيخ سعيد، مفيش وقت، يا حسنية سيبينا لوحدنا. بص يا شيخ سعيد، آدي احنا بقينا لوحدنا، أنا عاوز أقول لك على سر شيله في قلبي من زمان.

الشيخ : وقد اتسعت حدقتا عينيه وفتح جميع مسامه بشغف في انتظار ما يقوله حمدان، لعله يجد عنده كشفا للغموض الذي يبحث عنه لسنوات.. سر إيه يا حاج حمدان ؟

حمدان : اوعدني الأول إنك متقولش لحد، وإنك تسترني اليومين اللي فاضلين ليّ على الحياة.

الشيخ : أوعدك.

حمدان : أنا حقولك كل حاجة، من الآخر للأول، انت عارف مين اللي حرق ورشة محمد ابن الشيخ حسن.

الشيخ : مين يا حمدان ؟

حمدان : الواد حسونة الصبي بتاعه.

الشيخ : والواد حسونة حيحرق الورشة بتاع إيه وبأي سبب ؟ وبعدين دي لقمة عيشه، لا أنا مش مصدق الموضوع ده أسيبك من الظن يا حاج حمدان.

حمدان : اسمعني ولا تقاطعني، أرجوك، مفيش وقت، حسونة اللي عمل كده، عارف مين وزّه على كده ؟ الحاج فريد.

الشيخ : وفريد حيعمل كده ليه، دا راجل حاجج بيت ربنا، وبعدين فيه إيه بينه وبين محمد علشان يؤذيه بالشكل ده ؟

حمدان : الموضوع أكبر من محمد ومن الورشة، الموضوع قديم من أيام الشيخ حسن

الشيخ : الشيخ حسن! (لم يكد يكمل سعيد كلمته حتى اقتحم فريد عليهما خلوتهما مندفعا في الوقت المناسب)

فريد :.. الله يرحمه الشيخ حسن، كان راجل ولا كل الرجالة.

حمدان : وقد بُهت لرؤيته واقفا بإزائه: فريد ! إيه اللي جابك ؟

فريد : وقد حملق فيه، إيه يا عم حمدان انت فاكر الأموات ليه، انت باين عليك عاوز تحصَّل الشيخ حسن ولا إيه !

سعيد : وقد نظر إليه نظرة ارتياب، بس حسن مات مقتول، وحمدان

ربنا يديله طولة العمر.

فريد : أهي كلها موتة والسلام، وربنا يجعل ختامك يا حمدان ياخويا زي خاتمة الشيخ حسن، في الجنة إن شاء الله، دا غير حب الناس له.

الشيخ سعيد : مسير كل واحد لنهايته يا فريد، وأهم حاجة حسن الختام.

فريد : انت ساكت ليه يا عم حمدان، باين عليك مكنتش متوقع إن أزورك الساعي دي.

حمدان : وإيه اللي جابك الساعة دي.

فريد : ياخي هو فيه حد بيزورك غيري، كل ده علشان خاطر العيش والملح، ماانت عارف كل حاجة.

حمدان : أنا عارف ومش ناسي حاجة.

فريد : علشان كده أنا قلت يا واد يا فريد، روح بيِّت الليلة دي مع أخوك حمدان يتسند عليك يمكن يروح كده ولا كده، لحد الصباح ما يطلع نروح المركز للحكيم سوا.

سعيد : لو عوزني أبيِّت معاك يا حاج حمدان أنا خدام.

حسنية وقد أحضرت الشاي، ربنا يكرمكم جميعا، الموضوع ملوش لازمة، أنا الحمد لله مش مخلياه عاوز حاجة، كل ما هنالك إنه يقلق بالليل كتير.

الشيخ سعيد : من كتر الفكر يا ست حسنية.

حسنية : علشان كده يا حاج فريد لو تقدر تعدي ع الدكتور يكتبله على حقنة زي إمبارح، تنيمه الليلة، دا لما خدها إمبارح راح في سابع نومه.

فريد : المهم إنه يروح في سابع نومه.

حمدان : ما أظنش إني حنام ولو بلعت حبوب المحيط.

الشيخ (وهو يوجه الكلام تجاه فريد) أكيد فيه حاجة بتأرقه مش مخلياه ينام يا حاج فريد

فريد : الكوابيس يا شيخ سعيد، هو فيه غيرها.

حسنية : ألا الكوابيس دي بتيجي منين يا شيخ سعيد، دي لما بتسيطر على مخ البني آدم تخليه يبات يعد النجوم في عز الظهر.

الشيخ سعيد : اللي بيعمله العبد في نهاره لازم يشوفه في ليله، وإن كان خير يبقى خير، وإن كان شر لازم يكون شر.

حمدان : حتى ولو كان من سنين.

الشيخ سعيد: حتى ولو كان من عشرين سنة.

فريد : مش يلا بينا يا شيخ سعيد نسيبه يستريح.

الشيخ سعيد : أكيد حيستريح يا حاج فريد، أنا متأكد من كده.

حمدان : خليك معايا شوية يا شيخ سعيد.

الشيخ سعيد: مش وقته يا حاج حمدان، أسيبك دلوقت تستريح واعدي عليك وقت تاني تكمل فيه وصيتك.

فريد : هو فريد كان باعت يوصيك ولا إيه يا شيخ سعيد.

حمدان : أيوا ناوي أتبرع بحتة الأرض اللي في حوض العمدة يتبني عليها جامع.

الشيخ سعيد : فيه الخير، ربنا يزيده.

فريد : علشان كده كان باعتلك يجيبك في نص الليل، بقى يا راجل مش مستني الصبح يطلع.

حمدان : خير البر عاجله، والعمر ما ينضمنش.

فريد : إي والله، الواحد يبقى صحيح وفي لحظة تجيله المصيبة ما يعرف منين ولا ازاي

الشيخ سعيد : " كلا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ".

حمدان : صدقت يا شيخ سعيد، كله بأمره، يمكن ربنا لسة ما أردش، ومين عالم؟ ربما له حكمة لا يعلمها إلا هو.

سعيد : طيب تصبح على خير يا حاج حمدان.

فريد تصبح... على خير يا حمدان يا خويا، أشوف وشك على خير. الصبح حعدي عليك، ويمكن نروح للدكتور سوا.

حمدان : مع السلامة.

حسنية : شرفتنا يا شيخ سعيد.

انصرف فريد والشيخ سعيد بعد أن تبادلا النظرات عند الباب ثم سار كلٌ في طريقه قاصدا بيته.

(٣٢)

لم يكن يدري الشيخ سعيد إلى أي وجهة يتجه، وفي أي طريق يسير، الخواطر تتصارع في فؤاده كأنها بركان، والأفكار تتسارع في ذهنه كأنها الريح. هل يذهب للبيت؟ هل يذهب للمركز كي يبلغ الشرطة عما سمعه؟ لكنه مبتور لم يكتمل نصه. هل يعاود الرجوع إلى بيت حمدان للإستيضاح وطلب المزيد؟ إن اللحظة التي ينتظرها طيلة عمره هاهي أصبحت وشيكة الوقوع. وإن السر الغامض والمحيِّر طوال السنوات أوشك على الظهور و لولا لحظات سبق فيهن فريد لكان الأمر قد انتهى للأبد. ماذا أفعل ؟

إنه لم يشك لحظة أن لفريد دخل بموت الشيخ حسن، كان يريٍ في هذا الرجل داهية وشيطانا لا يقارن إلا بإبليس نفسه، كان يعرف أنه أس البلاء وأساس الشر في البلدة، لكن كيف له أن يوقع به؟ وهل سيفلت بفعلته هذه بعد انقضاء عشرين عاما عليها ؟ إنه يعرف أن القانون الوضعي الآثم يسقط العقوبة على الجرائم بالتقادم ؛ فهل سيُسقِط العقوبة على هذه الجريمة النكراء ؟ إذا من ذا الذي سيعاقب على شيء كان في التاريخ حدثا ومر؟ ولكن إذا كان الأمر هكذا في القتل فما بال جريمة حرق الورشة وهي حديثة الزمن؟ وهل سأكتفي بمحاسبته على هذه مع التغاضي عن تلك؟ إن الذي جعله يفلت بكبيره القتل؛ لا شك

يقيه بلمم الحرق، هذا إن ثبتت عليه ولم يلق بتبعاتها على حسونة. ما العمل إذا ؟ إن عقلي يكاد ينفجر، اللهم هيئ لي من أمري رشدا، اللهم اخذل الباطل وأهله، وانصر الحق وأهله.

كل هذه الخواطر وغيرها الكثير كانت تصول وتجول بفكر الشيخ سعيد في طريق عودته إلى بيته، ولم يكن يدرك أنه قد تأخر كثيرا، وأن فاطمة لجأت إلى محمد وبرهومة في الورشة تستنجد بهما للبحث عن حقيقة ما جرى وعن سر تأخر الشيخ سعيد كل هذا الوقت بعد صلاة العشاء على غير عادته.

وقفوا ثلاثتهم بعد أن كانوا قد تفرقوا بحثا عن الشيخ بلا جدوى فوقفوا ينظرون ماذا هم فاعلون.

محمد : أنا سألت عليه في الجامع الكبير، قالوا صلى العشا ومشى.

برهومة : وأنا سألت عليه عند الحاج إبراهيم الخياط، يمكن يكون راح يزوره، فلم أجده هناك.

فاطمة : طيب وبعدين حنعمل إيه ؟

محمد : والله دي حاجة محيرة، وأكيد عنده عذره، بس اطمئني ولا تنزعجي.

برهومة: وقد ألتفت بإزاء شبح قادم ولم يتبن معالمه، أنا شايف حد جي هناك.

فاطمة وقد دققت فيه: أيوا هو الشيخ سعيد، أسرعت جريا إليه،

خير يا أبي ما أخرك هذا المساء.

الشيخ : فاطمة، خير يا بنتي إيه اللي طلعك م البيت الساعة دي.. دا محمد وإبراهيم هنا كمان، خير يا ولاد، فيه إيه؟

محمد : احنا اللي بنسألك فيه إيه ؟

الشيخ : كل خير، اتأخرت في الجامع شوية، بعض الناس كان يسألني في موضوع معين. الحكاية متستهلش الهُلمة دي كلها. يلا يا محمد خد برهومة وروَّحوا، انتوا تأخرتم كتير، يلا اتكلوا على الله.

اندهش محمد من الطريقه التي صرفهم بها الشيخ سعيد، وكانت دهشته أكبر بكذبه عليهم وادعائه بكونه في المسجد.

ابراهيم : هو فيه حاجة بينك وبين الشيخ سعيد.

محمد : قصدك علشان مشانا بالطريقة دي، أنا متأكد إن ف موضوع تأخره الليلة دي سر، ولازم أعرفه بالتفصيل منه بكرة الصبح.

(٣٣)

لم ينم فريد هذه الليلة من كثرة التفكير، تُرى لماذا أرسل حمدان يطلب الشيخ سعيد؟ هل حقا من أجل أن يتبرع ببعض ماله؟ إن حمدان أبخل من ذلك. ترى هل بعث إليه ليخبره عن مقتل الشيخ حسن؟ صحيح أن حمدان من الجُبن أن يفعل ذلك؛ ولكن ربما أثَّرت فيه ظروف مرضه، وجعلته يرى أن في إبلاغه تكفيرا عن ذنوبه. وهل هناك ضرر يصيبني في حالة إذا ما قام بإبلاغه الأمر؟ وإيه يعني، دا الحكاية دي مر عليه أكتر من عشرين سنة، يعني مفيش محكمة ولا خلافه. وحتى لو كان فمن السهل الطعن في كلام حمدان، دا راجل كبير ومريض وبيخرف. ترى هل ذهب الشيخ سعيد يزوره طواعيه دون أن يطلبه للزيارة ؟ ما أظن أن حسونة يقدر يكدب عليّ، إنه يعلم أن رقبته في يدي. إذن ما الخبر؟ حرق الورشة لا يعلم بأمره حمدان، وحتى لو علمه، فلا دليل على قيامي به. لقد صار حمدان خطرا كبيرا وينبغي التخلص منه، إن العيار الذي لا يصيب يدوش. ولكن هل تقتل صاحبك؟ وإيه يعني ماانت قتلت الشيخ حسن قبل كده، واللي قتل مرة يقتل التانية. لازم سري يندفن معاه، ولازم عبايتي تظل بيضاء أمام الناس كعادتها. طيب ممكن أموته إزاي، أكتم نفسه وأخلص منه؟ أزود له جرعة الدواء شويه؟ ولا أسيبه مودوش المستشفى اليومين اللي الدكتور قال عليهم يمكن يخلص لوحده ؟ إزاي بس، ماهو لازم يكون هناك طريقه.

(٣٤)

لم ينم محمد، كان مشغولا بما حدث ليلة أمس، كان يتعجل طلوع الفجر قبل موعده حتى يصلي الفجر مع الشيخ سعيد، ويختلي به كعادته، ثم يسأله عن سر ليلة أمس. ذهب محمد إلى المسجد مبكرا إلى المسجد الكبير ولكن الشيخ سعيد لم يحضر للصلاة، أنهى محمد صلاته ثم خرج مسرعا على غير عادته وهو يتسائل: لماذا تأخر الشيخ سعيد؟ هل راحت عليه نومه؟ لا أظن ذلك. هل هو مريض؟ هل أصابه مكروه؟ طيب وبعدين أعمل إيه دلوقت ؟ أخبط على بابه إزاي؟ احنا بدري قوي مش وقت زيارة.

استجمع محمد شجاعته وطرق باب الشيخ سعيد في هذا الوقت المبكر.

رددت فاطمة: مين ؟ قال : أنا محمد يا فاطمة.

فتحت الباب، خير يا محمد فيه إيه؟ أمال الشيخ سعيد فين؟

محمد : أنا جي أسأل عليه.

فاطمة : دا خرج يصلي الفجر زي كل يوم، هو مصلاش معاكم ؟

محمد : لأ، قولي لي ماذا حدث ليلة أمس؟

فاطمة : لما رجعنا البيت جيت أسأله، طلب مني أن أغلق الموضوع ولا أتحدث فيه، ثم دخل حجرته حتى بلا عشاء.

محمد : يا ترى راح فين ؟

فاطمة : أنا افتكرت حاجة، هو إمبارح طلب مني دفتر العناويين والتليفونات، ولما أعطيته له، قلّب فيه ثم نقل منه أرقاما وعناوين لا أعلمها.

محمد : أكيد الشيخ سعيد نزل المركز. بس يا ترى ليه ؟ وعند مين ؟

(٣٥)

توجه الشيخ سعيد إلى منزل شريف العبد خال محمد في المركز ليبلغه بما استُجد من أحداث، ويستشيره في الأمر لعله يجد عنده حل فيما يجب أن يفعلَانه تجاه القضية. كان الشيخ سعيد يحب شريف، وكان شريف يُكِّنُ له عظيم المكانة.

وصل الشيخ سعيد في السابعة من صباح هذا اليوم، طرق الباب.

شاكر : مين ؟

سعيد : سعيد رضوان من كفر المؤمن.

شاكر: الشيخ سعيد وفي الساعة دي !! يارب استر.

فتح شاكر الباب على الفور، أهلا وسهلا بالشيخ سعيد، تعانقا، ثم طلب منه الدخول.

شاكر: خير يا شيخ سعيد، عنايات جرى لها حاجة، محمد تعبان، أمينة صابها مكروه، طمني؟

سعيد : محمد كويس والأود بخير، لا تقلق يا رجل، كله تمام، اطمئن، أنا جي أزورك، ولأني أعرف أنك لا تنام بعد الفجر قلت بدَّر بالزيارة.

شاكر: تآنس وتشرف، بس الموضوع فيه حاجه، أنا عارفك يا شيخ

سعيد كويس، خش في الموضوع على طول.

سعيد: أنا عارف إنك الوحيد اللي ممكن تقدّر الكلام اللي ح أقولك عليه، عشان كده جيت لك انت.

شاكر : احكي يا شيخ سعيد.

سعيد : السر اللي احنا طول عمرنا بندور عليه باين علينا قربنا نفك الطلاسم بتعته.

شاكر : قصدك.. !!

سعيد : أيوا هوا دا بالضبط.

شاكر : وازاي ده حصل ؟

قص عليه الشيخ سعيد الموضوع برمته.

شاكر : بس كلامك ده رغم أهميته، إلا أنه لا يوجد فيه دليل واحد يرشدنا إلى قاتل الشيخ حسن، كلامك ده بيقول إن حمدان جايز يكون عارف اللي قتله، لكنه حتى الآن لم يعترف.

سعيد : علشان كده لازم ناخد بالظن ده، ولو فرضنا إن حمدان عارف القاتل، ولو فرضنا برده إن فريد هو القاتل زي م كان السبب في حرق الورشة، فهذا يعني أننا لازم نلحق بفريد قبل ما يتخلص من حمدان أو يؤذيه، وتبقى فرصتنا ضاعت للأبد.

شاكر : وإيه العمل ؟

سعيد : لازم نبلغ البوليس.

شاكر : إنت عارف إن دا ما ينفعش من غير دليل، ثم انت ناسي إن جوز بنته ظابط ودا يصَّعب علينا الأمر.

سعيد : أمال أنا جيلك ليه لما بتسد في وشي كل الطرق، م تتصرف ياخي، انت أكيد معارفك في المركز كتيرة مش زيي.

صمت شاكر للحظات، ثم قفز من مكانه قائلا: وجدت الحل، انت تروَّح دلوقت ع البلد وترُوح على بيت حمدان، واوعى تسيبه وخليك معاه، جايز فريد يعمل فيه حاجة، وانا حطلع على سامي شعلان، دا وكيل نيابة، صحبي وكان شغال معايا في المديرية محامي قبل ما يقدم في النيابة، حستشيره في الموضوع، وربما أجيبه معايا كضيف ونزور حمدان ويمكن يقولنا على كل حاجة.

سعيد : وأنا في البلد منتظر، فإياك أن تتأخر.

(٣٦)

جلس محمد في الورشة وقد بدت عليه علامات التعب من قلة النوم والأرق مما حدث من أمر الشيخ سعيد اليوم وأمس. وكان على مقربه منه في الجانب الآخر من الورشة برهومة، وسيد، وحسونة يعملون.

حسونة (يريد أن يستطلع ما يحدث) المعلم محمد ماله النهاردة، مش عوايده، يقعد كده من غير لا شغله ولا مشغله.

برهومة : وانت مال أهلك انت ؟ خليك في نفسك وخلص شغلك.

سيد : هو فيه إيه هو السؤال حُرُم.

برهومة : حتى انت كمان ! طيب ياخويا انت وهو، أنا سايب الشغل كمّلوه أنتم .

تركهم إبراهيم ذاهبا إلى محمد في الجانب الآخر من الورشة.

إبراهيم : مالك النهاردة، هو لسة موضوع إمبارح شغلك ؟

محمد : موضوع إمبارح والنهاردة.

حسونة يقترب منهما يوهمهم أنه يحضر شيئا ما.

إبراهيم : هو فيه موضوع النهاردة كمان، دا إحنا لسة الصبح.

محمد : الشيخ سعيد قام قبل الفجر وراح مشوار، تقريبا راح المركز، حتى من غير ما يقول لفاطمة.

إبراهيم : بيني وبينك الموضوع بتاع إمبارح دا فيه إنة ولازم نعرفها.

محمد : ربنا يستر ويكون خير.

إبراهيم (وقد لاحظ إقتراب حسونة منهما دون داع) انت بتعمل إيه يا حسونة كمان؟ حتى انت كمان سايب الشغل وبتتفسح؟ روح ياخويا شوف شغلك يلا أوام .

محمد : أنا حروح أسأل فاطمة ع الشيخ سعيد أشوفه رجع ولا لسة.

إبراهيم : وأنا جي معاك.

خرجوا من باب الورشة في اتجاة جنينة الشيخ سعيد في الخلف، فاذا هو قادم من بعيد.

برهومة : يا محمد الشيخ سعيد جي من بعيد.

محمد : وقد أسرع في استقباله ومن خلفه إبراهيم، خير يا عم الشيخ فيه إيه، وكنت فين؟

الشيخ : سوف أشرح لك بعدين. اتركني الآن.

إبراهيم : طيب رايح فين ؟

الشيخ : أزور الحاج حمدان لأنه مريض.

محمد : واحنا جيين نزوره معاك.

وبينما هم على هذه الحالة إذ سمعوا صوت قادم من مئذنة الجامع الكبير، كان صوت الشيخ محمد الناغي ينعي أحد الموتى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، إنا لله وإنا إليه راجعون، توفي إلى رحمة الله تعالى الحاج حمدان عبد الله البحطيطي، والدفنة بعد صلاة الظهر من الجامع الكبير، وكل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

ذهل الشيخ بعد سماع الخبر، انطلق يكذبه في غير وعي، مش معقول، يموت إزاي أنا كنت معاه إمبارح، دا كان زي الفل، أكيد فيه حاجة تانية، أكيد حد تاني، ومحمد متعجب من كلام الشيخ الذي يخرجه عن يقين العلماء الذين يصبرون عند الصدمة الأولى ويتلقون مثل هذه الأخبار في صبر ويقي، ولكنه على كل حال، قد إلتقط منه مكان غيابة ليله أمس.

انطلق الشيخ يهرول باتجاه منزل حمدان يغير وعي ومحمد وبرهومة من خلفه.

وصل الشيخ، وجد جمع من الحضور يقفون خارج البيت يرتبون أمر الدفن والعزاء، لم يعبأ الشيخ بهم، كان همه أن يري حمدان بعينيه، انطلق داخل البيت كالصاروخ المنطلق ومحمد وبرهومة يتابعانه.

كان حمدان مسجى على سريره ببردة تغطي رأسه وبدنه، ولم يكن معه سوى فريد وعلى مقربه منهما زوجته وبعض النساء. كان فريد يحوقل ويسترجع الله تبارك وتعالى ويترحم على صديق عمره.

الشيخ سعيد (وهو ينظر إليه) حصل إيه، مات إمتى وازاي؟

فريد صامت ولا يرد عليه، غير أنه مضى يرفع من صوته: إنا لله وإنا إليه راجعون، لا حول ولا قوة إلا بالله.

أخذ الشيخ سعيد يكرر عليه السؤال بانفعال وغضب: أنا بقولك إيه اللي حصل إمبارح، حمدان مات ازاي ؟

رد فريد (وهو ينظر باتجاه جسد حمدان ولا يعبأ بالشيخ ولا بكلماته): كله بأمره، الله يرحمك يا حمدان ياخويا، ويجعل مثواك الجنة ونعيمها.

يكرر عليه الشيخ السؤال مرة ثالثة وهو يجذبه من طوق جلبابه: اتكلم.

فريد : أُمال يقين العلماء فين يا مولانا، ادعوا الله له أن يرحمه ويُصبِّر أهله.

كانت زوجة حمدان ترى ما يحدث؛ قامت على الفور تحدث الشيخ سعيد، وتخبره الخبر: بعد ما مشيتو إمبارح، تعب جامد والمية احتبست فيه، وصار يصيح كما لو أن أمراض الدنيا قد أصابته فأسرعتُ إليه أعطيته جرعة من الحبوب لكنه بعد لحظات دخل في غيبوبة، أفاق منها عند الفجر، فظننت أنه قد شفي، ولكنه بعد لحظات أوصاني ثم سلم الروح إلى باريها.

رغم أن كلمات حسنية قد هدّأت قليلا بعض ما أصاب الشيخ من مصاب جلل، إذ انتفى لديه وجود شبهة تدخل في موت حمدان من قِبَل فريد، إلا أنه بالرغم من ذلك مازال يحس أن في الأمر شيء.

خرج الشيخ سعيد، جالس الحضور وهو صامت لا يتكلم، وكلهم في انتظار المغسِّل الذي لم يغب إلا قليلا، وما هي إلا ساعة ومضوا يحملونه على أكتافهم إلى المسجد ليُصلَّى عليه. وفي الطريق قابلهم شريف ومعه رفيقه. تعجب محمد من رؤيته. انتهز فرصة انشغال الناس بالوضوء استعدادا لصلاة الظهر والجنازة وكلم خاله.

خير يا خال ! إيه اللي جابك النهاردة على غير ميعاد ؟

شريف: علمت بوفاة الحاج حمدان، جيت أحضر الجنازة، ومعي صديقي الاستاذ سامي شعلان.

محمد : وعرفت إزاي ومين قالك ؟

شاكر : بعدين يا محمد بعدين.

توضأ الناس، صلوا الظهر والجنازة يتقدمهم الشيخ سعيد، ثم حملوا حمدان إلى المقابر. وفي رحلة العودة من المقابر، اتخذ الشيخ سعيد جانبا من الطريق ومعه شريف وسامي شعلان.

شاكر : تفتكر إنه سبقنا وعملها؟

سعيد : مش عارف إيه الحكاية، بس مظنش إن الموضوع يعدي عليه كده بالساهل.

سامي: المفروض قبل ما نستعجل بالتخمين، نسأل الأول الدكتور اللي شافه ونعرف منه التشخيص بالضبط، ومن كلامه نعرف إن كان هناك شبهة جنائية أم لا. أنتو عارفين اسم الدكتور؟

الشيخ : الدكتور عبد السلام مصطفى أخصائي الباطنة بالمستشفى العام.

سامي : سيبو الموضوع دا عليّ، سوف أقابل الدكتور بنفسي وأسأله.

شريف : طيب وحسونة ؟

سامي : مظنش اننا نستطيع فعل أي شيء تجاهه الآن، وذلك لوفاه الشاهد الوحيد في القضية، إلا إذا اعترف بما فعل، وهذا بالطبع لن يحدث.

الشيخ : أما حسونة سيبوه عليّ، أنا أعرف أتصرف معاه بمعرفتي.

سامي : إياك أن تتصرف بما يُسيء إليك، أو يغير مجرى الأمور في غير صالحك.

الشيخ : سيبها على الله.

شريف : طيب نستأذن، أنا حسلم على محمد واتوكل على الله.

تركهم شريف وأقبل إلى محمد والذي كان يراقبهم من بعيد، فاعتذر إليه عن عدم زيارته لهم اليوم نظرا لوجود الضيف مع بعض المشاغل المهمة، على أن يزورهم في القريب العاجل.

انصرف شريف وضيفه وبقي محمد يبادل الشيخ بنظرات فيها السؤال عما يحدث. تقدم إليه الشيخ قائلا له : روّح دلوقت يا محمد وسوف أخبرك بكل شيء في حينه.

انتهز الشيخ فرصة ذهاب محمد إلى بيته، وافتراقه عن إبراهيم الذي عاود الورشة، فأسرع الشيخ إليه ونادي عليه.

برهومة : خير يا شيخ سعيد.

الشيخ : خد سيد واسبقني ع البيت، عوزكم في موضوع مهم.

أراد إبراهيم أن يستوضح الأمر، وضع الشيخ يده على فمه قائلا: أنا قلت اسبقني، وفي البيت حنتكلم.

(٣٧)

جلس الشيخ سعيد مع برهومة وسيد في بيته مع علامات استفهام كبيرة تدور في ذهنيهما، خاصة إبراهيم الذي لا يجد تفسيرا حتى الآن لما يحدث.

الشيخ : انتو عارفين انتو هنا دلوقت ليه ؟

الإثنين في نفس واحد: طبعا لأ، عوزين نعرف.

الشيخ : علشان أقول لكم مين اللي حرق الورشة.

انتفض إبراهيم وسيد واقفَيْن، وقد علا صوتهما:

برهومة : انت عرفته ؟

سيد : قلي عليه وأنا أقتله، أشرب من دمه.

الشيخ : كده مش حنعرف نتكلم، أنا لو كنت عاوز أضربه أو أؤذيه كنت اتصرفت في الموضوع ده لوحدي. إنني أتفق معكم أن المذنب لابد وأن ينال عقابه ؛ ولكن هاهنا قضية مهمة: من ذا الذي يعاقب الجاني على جنايته، والمذنب على ذنبه، والمجرم على جريمته. لو تركنا القصاص بيد كل فرد من أفراد المجتمع لتحول المجتمع إلى غابة تحكمها شريعة الغاب، وهذا ما لا يرضاه الشرع ولا يقره القانون. يا أبنائي لابد وأن

يكون القصاص بيد سلطان واحد، وجهة واحدة، ولا يحق لأحد أن يفتئت على السلطان في تنفيذ أحكام الشرع وإلا خرج عن الملة.

سيد : أنا مش فاهم انت بتقول إيه ! كل اللي أعرفه أن الجاني ده ضرِّني، وحاول يقطع عيشي، ولا ممكن أسيبه أبدا، لازم أموته، أقطع رقبته، أقطع عيشه زي ما حاول يقطع عيشي. عوزني أسيبه بعد كل ده؟ أبدا ما يحصل.

برهومة : ما الذي أغراه بتنفيذ جريمته إلا كونه يفترض ضعف القائمين على الأمر، ولولا أنه أحس بقوة تردعه لما أقدم على جريمته. أبعد كل هذا تأمرني أن أتركه؟ ماذا سيقول عني: جبان؟ ضعيف؟ مهزوز؟ مش قادر آخد حقي؟ أو أدافع عن نفسي ؟

الشيخ : الكلام اللي انت بتقوله ده كان ينفع لو كنا في ساحة الحرب وتحكمنا قوانين المعركة؛ إنما نحن في مجتمع تحكمه قوانين العدالة. يا بني إن الإفراط في استخدام القوة بغي، وإن فرط الشجاعة تهور، والقوة التي لا يحكمها عقل شطط ومفسدة. وإن كنتم مع ذلك تصرون على موقفكم هذا فأنتم أداة إفساد لا وسيلة إصلاح، إنكم إذا والمفسدون سواء؛ هؤلاء يفسدون عن هوى وغواية، وأنتم تفسدون عن عمىً وجهالة والنتيجة واحدة، مجتمع يهدم، وقيم عليا تضيع.

كانت فاطمة تسمع حوار أبيها من وراء الباب، لكن لم يعجبها اللغة التي يتحدث بها مع هؤلاء العمال البسطاء، كانت ترى أن في كلامه ما هو مستعجم عليهم ينبغي توضيحه، وما هو فوق عقولهم يجب تقريبه.

طرقت فاطمة الباب، خرج إليها والدها، أشارت إليه أن تعالى.

– خير يا ابنتي ؟

– قالت : يا أبي، وضح لهم ما تقول بمثل يقترب من أذهانهم و ينبع من بيئتهم حتى يفهموا ما تقول، ويعوا ما تشرح.

– إزاي يعني ؟

– قل لهم : أيرضى واحد منكم وقد تزوج أن تحكم البيت زوجته؟ أيرضى واحد منكم إن كان رب أسرة أن يشذ أحد منها عن طوْقه أو أن يُعصى أمره؟ أيرضى واحد منكم وهو مَعَلِّم كبير في ورشته أن يخالفه أحد العمال، أو أن يسِّيروا كلامهم عليه ؟ فكذلك لا يرضى الله إلا أن يُحكم بشرعه، وألا تكون كلمة فوق كلمته، وهذه بتلك.

فهم الشيخ مقصود الفتاة الواعية، حمل الشاي، أدخله إليهم، وما زال بهم يقرِّب إلى أذانهم خطأ ما استمكن في عقولهم، واستغلق على أفهامهم، وبأن هذه القضية بالذات هي القضية التي أضرت بالمسلمين قديما وما زالت هي سر انحراف معظم الفئات والجماعات في كل عصر. ما زال الشيخ بهم حتى فهموا، وما زال يواجه عنادهم حتى لانوا.

سيد : يعني انت عوزنا نعمل إيه دلوقت ؟

الشيخ : عوزكم تكيدوا معي لهذا المجرم بنفس منطقه، حتى نوقعه في المصيدة ثم نقدمه للعدالة. إننا لا نريد أن نقدمه للقصاص انتقاما وكراهية ؛ بل نأمل أن يكون القصاص له رادع يردعه، ومحنة توقظه

لعله يعود إلى الخير من جديد وتزول الغيوم من عينيه فيبصر.

برهومه : انت توهتنا في سكك يامة، وبعدنا عن الطريق الأساسي. احنا عوزين تقلناع المجرم دلوقت حالا من غير لا لف ولا دوران.

الشيخ سعيد : تتوقع يكون مين ؟

سيد : إحنا لسة حنتوقع، ما تقول على طول ومتلعبش بأعصابنا.

الشيخ : برهومة اتوقع قبل كده وكاد أن يعرفه.

برهومة : قصدك مين؟

الشيخ : اللي الفار كان بيلعب في عبك منه.

برهومة : الواد حسونة.

سيد : مش معقول !

برهومة : ابن الكلب، أنا كان قلبي حاسس من زمان إن الواد ده وراه سر كبير.

سيد : وازاي ده حصل، وعرفت منين ؟

حكى لهم الشيخ سعيد لهم ما قاله الحاج حمدان قبل موته بشأن حرق الورشة، وبعض ما تجمع لديه من أخبار عن حسونة.

إبراهيم : وازاي حنقدر نوقعه ؟

سيد : نربطه في الورشة، ونقعد نضرب فيه لحد ما يقر ويعترف،

وبعدين ناخده المركز علشان يآخد جزاؤه.

الشيخ : مش دا بس اللي أنا عوزه، أنا عاوز اللي ورا حسونة. حسونة يا ولاد هو الديل، وأنا عاوز الراس اللي بتحرك وتخطط.

برهومة : هوا فيه حد وراه ؟

الشيخ : طبعا.

سيد : وانت تعرفه ؟

الشيخ : أكيد أعرفه.

برهومة : طيب قلنا عليه واحنا نتصرف معاه.

سيد : وإيه مصلحته في إلحاق الأذى بمحمد ؟

الشيخ : دا سر كبير، والوقت مش وقته، لكن لو قدرنا نفضح اللي ورا حسونة، ونعريه قدام البلد، ونوريهم حقيقته يبقى احنا حققنا جزء من المهمة اللي يمكن في يوم أحققها كلها (لما أعرف اللي قتل الشيخ حسن).

قالها في سره.

برهومة : طيب وإيه الحل مع ابن الهرمة ده ؟

الشيخ : اسمعوني أقص عليكم كيف يمكن أن نوقع به.

(٣٨)

كان والد حسونة يعمل لدى الحاج فريد، وكان رَجُلُه المفضل وذراعه الأيمن يعتمد عليه في كل أمر، ويختصه بكل سر، وظل هكذا وفيا على عهده معه إلى أن مات.. كان يكثر من شرب الخمر بلا هواده، ويتناول كل ما هو مخدر ومسكر بلا تدبر عاقبة. عاد في هذه الليلة وقد تناول جرعات كبيرة منها فلم يستطع قلبه أن يتحمل فمات، حزن الحاج فريد عليه حزنا لم يحزنه على أحد من بعده حتى عندما ماتت ابنته إنصاف.

كفل الحاج فريد أولاده الأربعة بما فيهم حسونة وأمه، وظل ينفق عليهم إلى أن كبر حسونة، وكان عليه أن يرد الجميل للحاج فريد. انتهزها فريد فرصة ورأى في حسونة ما رآه في أبيه من قبل، فعهد إليه ببعض الأمور واختصه ببعض المهام حتى نجح فيها وُكِّل إليه فكان له من حبه نصيب، ومن سره حظ، وما كانت المهمة التي عهد به إليها في حرق ورشة محمد إلا خير دليل على ثقته فيه، واطمئنانه له. وما كانت هذه إلا فاتحة العهد لما هو أكبر منها.

(٣٩)

كانت خطة الشيخ سعيد هي أن يحاول الوقيعة بين حسونة وفريد بالحيلة، حتى يستطيع أن يُوقع حسونة في الخية ويعترف ليس بجريمته فحسب؛ ولكن أيضا بمن وراء تلك الجريمة، وبذلك يضع فريد في مأزق وربما يقوده هذا إلى معرفة قاتل الشيخ حسن. لذا انتهز الشيخ فرصة سفر الحاج فريد لزيارة ابنته في البندر وأراد أن يوقع العداوة بينهما وأن يوغر قلب حسونة تجاه فريد، وكانت أداته في ذلك سيد وبرهومة.

برهومه (يهمس في أذن سيد بصوت يسمعه حسونة) الحاج فريد دا راجل سوسة، وملوش أمان أبدا.

سيد : إزاي، وإيه اللي يخليك تقول كده.

برهومة: هو انت مش عايش في الدنيا ولا إيه، دي البلد كلها بتتكلم: كسر شريكه سالم بيه وبيَّعه المصنع بخساره لحد محصله جلطة وراح فيها، والسنة اللي فاتت مص دم الغلابة اللي شغالين معاه وطردهم كلهم طرد الكلاب. والحاج حمدان صحبه طول العمر، عمره ما زار مراته ولا مرة بعد ما مات، وتقريبا والله أعلم زي منا سامع كان له دور كبير قوي في موته، متعرفش ازاي يا اخي، وقريّب قوي يوقع الناس اللي معاه في شر أعمالهم.

سيد : وانت نسيت كمان الكلام اللي داير في البلد عن شركته مع المعلم حموده اللي كسره فيها وسابه وكان حيروح فيها لولا ربنا ستر وانت عارف الباقي.

برهومة : ولسه ياما في الجراب يا حاوي، وإن شاء الله أخرت اللي يمشي معاه طين وقطران.

سيد : والبيعه السَّوْ بترد في قفا صاحبها ولا إيه يا معلم حسونة ؟

حسونة : انت تقصد إيه يا سيد بالكلام ده.

برهومة : يقصد إن اللي بيزرع زرعه لازم يدوقها، واللي يشيل قربه مقطوعه لازم تخر على دماغه.

سيد)وهو ينظر إليه ويحدق فيه) مش بس كده، وكمان اللي بيحفر لأخوه حفره لازم هو الأول يدَّلى فيها.

دخل محمد عليهم وهم يتحادثون، فالتقطتت أذنيه خيط الحوار.

محمد : إيه يا يا معلم برهوم انتو بتشتغلوا ولا بتحفروا، وتروا، وتزرعوا.

برهومة : ماهو يا معلم محمد اللي ميخدش باله من زرعته، لازم تموت زرعته، واللي ما يروي أرضه اليوم يدوَّر عليها بكرة إزاي.

محمد : إيه يا برهوم، انت بقيت بتقول حكم ولا إيه؟ من إمتى يا راجل؟

برهوم : أصل أنا فقت خلاص، والضربه اللي يعدي منها الدماغ، يُفوت صاحبها في الحديد ولا ينهدش.

محمد (وقد نظر إلى حسونة) إيه يا حسونه هو فيه إيه، فيه حد مزعل الراجل ده، هو ماله كده واخد على مِشَمُّه، ومحدش عارف يوقفه.

حسونه : بقى أنا اللي أسالك عنه يا معلمه واللي انت اللي بتسأل؟

سيد : أصل انت فاهم الفولة واللي فيها، وعارف الكفت واللي صنعه، وطبعا العارف لا يُعرف.. هأ هأ هأ.

نظر إليه حسونه نظرة ارتياب، ولكنه لم يرد بكلمة.

محمد : طب يلا بينا يا رجاله نكمل شغلنا ونبطل كلام، صح يا عم إبراهيم.

برهومه (وقد نظر إلى حسونة) طبعا طبعا، هو انت فاكرنا بتوع كلام بس، لا يابا، دا احنا رجاله قوي، نتكلم آه، ونضحك وقت التهريج ماشي، إنما وقت الجد نار وحياتك.. وِلعة، ومنسبش حقنا أبدا حتى لو حتطلع روحنا ويّاه.

(٤٠)

نجحت خطة برهومة وسيد في استثارة حسونة. أحس حسونة أن شيئا ما يُبيَّت له في الخفاء، خاصة أن لهجة التعامل معه قد تغيرت تماما، وأن الكلام أقرب ما يكون ع المكشوف الذي تنقصه المصارحة؛ لكن الشيء الوحيد الذي يتعجب منه حسونه هو: ما الذي عرفوه عنه بالضبط؟ ومن أخبرهم؟ وهل ممكن أن يضحي به فريد وهو رجله المفضل وذراعه الأيمن؟ ولم لا !! وأنا ليس في يدي شيئ أستطيع أن أمسكه عليه. وهل معقول أن يبيعني الحاج فريد بهذه الصورة؟ إن هذا غير ممكن أبدا. إنهم يقولون عنه أنه باع الكثير من رجاله وشركائه وكسرهم شر كسرة فهل يحدث مثل هذا لي؟ لا مش ممكن أنا عارف صحيح إن فريد تِعْبان كبير بس مش ممكن أبدا يعمل معايا كده؟

.. كانت هذه وغيرها بعضا مما يمر بفكر حسونه من الخواطر وهو في طريق عودته من الورشة قافلا إلى بيته.

كانت الليلة في أول أيام الشهر القمري وقد نزل ظلامها مبكرا. كانت الليلة مختارة بعناية، رتب لها برهومة وسيد مع الشيخ سعيد بعناية بمشاركة وعلم شريف خال محمد وصديقه سامي شعلان وكيل النيابة.

كان سامي شعلان يحب شريف العبد خال محمد حبا جما، فقد كانت

له به صداقه وصحبة لزمن طويل، فدفعه حبه له وثقته فيه إلى أن يشترك في هذه اللعبة التي يهدف من ورائها إلى أن يوقع حسونه في شر أعماله. وفي الحقيقة لم يكن هذا هو الدافع الوحيد الذي دفع سامي شعلان إلى المجازفة باسمه وسمعته في هذه اللعبة، ولكنَّ هناك سبب آخر دفعه لذلك، سبب لا يعلمه حتى صديقه شريف العبد، هذا السبب هو صلة النسب بين الحاج فريد ومأمور المركز السابق الذي تزوج من ابنته، فبحكم عمله يعلم سامي شعلان جيدا عن هذه الشخصية دنائتها إلى أقصى حد، وكم أن أحمد بيه الدمياطي (كما ينادونه) هو شخص وصولي انتهازي، لا تهمه إلا مصلحته وفقط، وكم أنه ظلم الكثيرين والكثيرين، فأدخل السجون من هم ليسوا من أهلها، وأخرج منها من هم أصول فيها. ولقد اصطدم معه سامي شعلان مرات ومرات من قبل، ويود أن لو تأتي الفرصة مرة فيرد له الصاع صاعين، وينتصر لأهل الحق من أهل الباطل.

كانت خطتهم أن ينصبوا لحسونة كمينا في طريق عودته في الظلام، وأن يضطروه بالضغط عليه إلى الإعتراف بجريمته ثم يقومون بتوصيله إلى مقر الشرطة حيث يقوم شعلان بالباقي. وبالفعل مر حسونه من المكان المحدد، فإذا بجمع من الشباب يخرجون عليه ملثمين، يمسك كل واحد منهم بعصاه كبيرة وبعضهم يحمل المطاوي. خرجوا عليه ملثمين، أمسكوا به، ربطوه في شجرة كبيرة، انهالوا عليه ضربا

- انتوا مين وعوزين إيه بالضبط ؟

– احنا شر أعمالك، انت فاكر إنك ممكن تخون المعلم فريد كده بالساهل من غير ما تاخد جزائك ! انت بتحلم.

– يابني اللي يقف في وش المدفع ينسفه.

– واللي يقف في وش الطوفان، يبقى بالسلامة عليه.

– وده مش الطوفان وبس، دا طوفان وإعصار وزلزال كمان. بقى انت ياللي قد الفولة تقف في وش معلمك وتكشف سره.

حسونه : سر إيه بس، أنا عمري ماخنت المعلم فريد أبدا، دا اللي رباني ولحم اكتافي من خيره، دنا دراعه اليمين، أخونه إزاي بس.

١ – مش انت اللي رحت تقول لمحمد إن المعلم هو اللي حرق الورشة.

٢ – دا مش بس كده، وكمان قاله إن المعلم فريد هو اللي قتل الحاج حمدان الله يرحمه وسمّه قبل ما يموت.

٣ – انت فاكر كل دا شويه!

حسونه : أنا معملتش كده، ما انتو عارفين إني لا يمكن أقرع المعلم واعترف عليه، لأني لو عملت كده بجيب رجلي ف الخية.

١ – إزاي.

حسونة: ما انتو عارفين وكل البلد شاهدة إن المعلم فريد كان في الليلة دي مع نسيبه سيادة المأمور في المستشفى بستقبلوا المولود الجديد، وإن اللي قام بالمهمة دي أنا مش الحاج فريد، يا جماعة هو فيه حد بيعترف

على نفسه، دا حد يبقى مجنون.

١ – دا مش مجنون وبس، دا أهبل وابن أهبل كمان.

٢ – يعني انت بتعترف إنك اللي حرقت الورشة ! أُمال قلت لمحمد وبرهومة غير كده ليه؟

أنا مقلتش حاجة والله، شوفوا مين اللي قال.

في هذه اللحظة انقض سيل من رجال الشرطة، وسُمع ضرب نار في الهواء حيث فر الملثمون، بينما أتى رجال الشرطة.

كانت خطة الشيخ سعيد، أن يوهم حسونة أن الملثمين هم من رجال فريد، وأنهم أتوا للقصاص منه، وأن ينتزع منه اعترافه على هذه الحالة. وبينما هو يعترف يكونون قد أبلغوا الشرطة بأنهم رأوا من يعتدي على حسونه فتأتي الشرطة لتنقذ حسونه منهم، حيث يلوذون بالفرار ثم يعترف حسونه بجريمته أمام وكيل النيابة الذي لديه كل العلم بالتفاصيل.

وبالفعل استطاعوا أن ينتزعوا منه الإعتراف بجربمته النكراء في حرق الورشة، واستطاع وكيل النيابة بحنكته وخبرته أن يسجل هذا في مضبته ودفاتره.

***

كان غياب فريد عن القرية لأيام في مرافقه نسيبه الدمياطي فرصة جيدة للإيقاع بحسونة. حاولت أم حسونة جاهدة الوصول إلى مكانه

لإبلاغه بتفاصيل ما جرى إلا أنها لم تستطع. قَدِمَ فريد في الثالث للحدث، فوجد حسونه قد عُرض على النيابة واستحكم الخناق حوله. كان كل ما يشغل فريد حين علم بالأمر هو كيف حدث هذا؟ ومن الذي أخبر النيابة بخبر حرق الورشة، وكيف وصل حسونة إلي يد النيابة، ومن وراء هذا كله؟ وإلى أي حد تعرف النيابة عن ضلوعه في المشاركه في هذا الأمر؟

طلب فريد مقابلة حسونة بأسرع ما يمكن، فرتب له نسيبه اللقاء.

فريد : إيه اللي حصل بالضبط ؟ احكِ لي.

حسونة: وقد تلجلج صوته، وتعثرت كلماته، أنا أنا أأأنا.

فريد : انت إيه ؟ اتكلم.

حسونة : أنا انضحك عليّ يا معلم؟

فريد : انضحك عليك ازاي ومين اللي ضحك عليك؟

حسونة : فهموني إن المعلم فريد بيبيع رجالته، وإنك بعتني؟

فريد : يعني انضحك عليك، وقرّيت بكل حاجة.

حسونة : لا يا معلم، أنا مقلتش عليك حاجة وحشة، أنا قلت لهم أنني حرقت الورشة، كان فيه خلاف بيني وبين محمد، وأكل فلوسي فولعت له في الورشة، ومجبتش سيرتك خالص.

فريد : وهو انت تقدر تجيب سيرتي، دا عاش ولا تولد لسة. وأنا

اللي كنت فاكرك راجل وتشيل المسئولية وكنت عملك دراعي اليمين، صحيح يخلق من ظهر الجمل ضفدعة.

حسونة : سامحني يا معلم، أنا برده ابن أعز رجالتك.

فريد : وقد أدار له وجهه، وأخذ يكلم نفسه، يعني اللعب بقى دلوقت ع المكشوف، وانت ياسي محمد بتلاعبني، طيب بكره نشوف.

(٤١)

مكتب وكيل النيابة سامي شعلان، وقد دخل عليه أحمد بيه الدمياطي وهو يمسك بيمينه سيجارا فخما يمتص دخانه بشراهه، وقد أمسك بيده الأخرى عصا خرزان صغيرة.

الدمياطي: ازيك يا سامي بك، والله زمان يا راجل، مشفتكش يا ترى من أد إيه ؟

شعلان : تقريبا كده من يوم ما علقت الدبورة الجديدة.

الدمياطي : تنكر ان ده كله بشطارتي.

شعلان : طول عمرك شاطر يا أحمد بيه، وهو فيه حد يعرفك أدي. دحنا دفنينه سوا يا راجل.

الدمياطي : لا.. أنا بدفن لوحدي بس، عمري ما باخد حد معاياي، واللي بخده بس هو اللي يبقى ناوي أدفنه، علشان ميبأليش سر مع حد.

شعلان : بيقولوا إن في القانون الأمريكي بيخدوا بشهادة الأرواح.

الدمياطي : وعلى ما يطبق في مصر يكون غيرها مات وشبع موت .

شعلان : ماهو المرة دي الميت مش حيموت بالساهل، دا لازم يتسجن الأول، وبعدين يقر ويعترف، ولازم في يوم الحقيقة تظهر

والحق يبان.

الدمياطي : وعلى ما تظهر الحقيقة، هو حيطلع امتى.

شعلان : هو مين ؟

الدمياطي : الواد حسونة.

شعلان : حسونة اعترف خلاص، وكله متسجل في محضر النيابة.

الدمياطي : ما ياما محاضر يا سامي بيه.

شعلان : لا أنا المحاضر بتعتي مش من النوع ده، وأظن إنك عارف كده كويس.

الدمياطي : يعني إيه؟

شعلان : يعني المذنب ياخد جزاؤه، والحق يروح لصحابه.

الدمياطي : يعني دا آخر كلام.

شعلان : ومفيش غيره كلام.

انصرف الدمياطي غاضبا، وما إن وصل الباب حتى توقف فجأة.. وقال يخاطب شعلان دون أن يلتفت إليه : بيقولوا إن ترقيات النيابة قريب قوي يا سامي بيه.

سامي : أيوا صحيح، دنا سمعت إن " عبد السلام باشا الحلواني " طالع أوت. فهم الدمياطي الرسالة فانصرف مغاضبا جاذبا الباب من خلفه بقوة شديدة وصوت مدوٍ.

(٤٢)

كان وقع الخبر على محمد كالصاعقة، مين حرق الورشة.. حسونة! ولماذا يفعل حسونة هذا الأمر؟ ومن أين لبرهومة وسيد العلم بالأمر قبله؟ والشيخ سعيد وخالي؟ كلهم يعلمون بالأمر، الوحيد الذي لا يعرف شيئا عن هذه القضية هو أنا. كان هذا الحدث كفيل بأن يعتمد محمد على نفسه في كشف الأحداث، وألا يثق في أحد. ظل محمد طيلة ليلته لا يستطيع النوم، يتقلب على فراشه كما تتقلب الحية. دخلت عليه والدته السيدة عنايات: خير يا محمد يا ابني شكلك كده قلقان ومش عارف تنام، خير بتفكر في إيه؟

محمد: هو فيه غير الموضوع اللي احنا فيه؟ حسونة يحرق ورشتي؟ طيب ليه؟ وبرهومة وسيد يعرفوا الموضوع قبلي، إزاي دا يحصل؟ والشيخ سعيد كمان! أنا فقدت الثقة في الناس اللي حواليه كلهم؟

عنايات : لو فقدت الثقة في اللي حواليك يبقي انت بتهدم اللي بنيته، يا بني راس مالك هو ثقتك في اللي حواليك، واللي حواليك كلهم بيحبوا لك الخير ولا ممكن حد فيهم يضرك، برهومة وسيد والشيخ سعيد.

(محمد يضحك بصوت مسموع)

عنايات: انت بتضحك ليه؟

محمد: مش ده الشيخ سعيد اللي كنت بتكرهي سيرته، وتزعلي لو حد اتكلم عنه، بقى دولوقت بيحبني، رأيك دا من امتى؟ شفتِ كل حاجة بتتغير ازاي!

عنايات: أنا رأيي اتغير في الشيخ سعيد من يوم الحريقة، معرفش ليه حسيت إن الراجل دا بيحبك؟

محمد : ومين قالك إنه كان بيكرهني من أساسه؟

عنايات : ياه يا محمد هو كل حاجة أسئلة في أسئلة؟

محمد: ويا ريت بعرف إجاباتها، تقدري تقولي لي انت ليه حسونة يحرق الورشة؟ ومين اللي وراه؟

عنايات : مفيش غير واحد بس؟

محمد : مين هو، وهو انت عرفاه؟

عنايات : يا ابني المؤذي منه لله، انت خليك مع الله تكسب، وربنا يحفظك من كل شر، وبعدين لزمته إيه لما تعرف، ربنا بيخلص ومبيسبش حق حد، أمال ربنا جعل الآخرة ليه؟

محمد: لازم الجاني ياخد عقابه النهارة قبل بكرة، وفي الدنيا ياخد جزاؤه وفي الآخرة يكون الجزاء أكبر.

عنايات : ومين اللي يحاسبه ؟ انت؟

محمد : فيه قانون وشرطة وحكومة ؟

عنايات : يمكن يكون أكبر من القانون، وابن الشرطة، ومناسِب الحكومة.

محمد: واللي صفته كده، يضر محمد بن الشيخ حسن ليه؟

عنايات : يمكن علشان ابن الشيخ حسن.

محمد: يعني إيه ؟

عنايات : يعنى تنام وتنسى الكلام دا كله، وتفوض أمورك لله.

محمد (بصوت خفيض) يعني أكون جبان وامشي جنب الحيط.

عنايات وقد قامت للنوم: تصبح على خير يا ابني، ربنا يكفيك شر الشيطان وولاد السوء، وشر نفسك قبل كل شيئ.

محمد : نفسي !! آه من نفسي، آه لو كنت أعرف هيه إيه نفسي؟ طول عمري بسأل نفسي إيه هيه نفسي؟ وباين عليّ كل ما أقرِّب أعرف نفسي؛ تبعد عني نفسي، وأبدأ تاني من جديد. باين الموضوع ده ملوش نهاية.. ولا حتى بداية. يا تري مين يعرفني نفسي؟

(٤٣)

لم يستطع محمد أن ينم تلك الليلة، ومضى في تساؤلاته، الفضاء من حوله علامات استفهام لا اجابه لها، وما يخرج من سرداب حتى يجد نفسه في آخر، ثم فزع من فراشه مع الفجر، فصلى خلف الشيخ سعيد، ثم هرع بمجرد أن سلم حتى لا تكون هناك فرصة لمحادثته. كان محمد يعرف مقصده، كان يريد أن يقصد المركز من أجل زيارة حسونة في السجن لعله أن يفوز منه بمعلومه تدله على من كان السبب في حرق الورشة.

وكم كانت مفاجأته أنه لم يجد حسونه في سجنه، بل لم يستطع أن يعثر منهم على مكانه، كل الذي علمه أن إدارة السجن قد قامت بترحيله، لكن أين؟ لم يعرف على وجه الدقه، وكأن أمر حسونه من المعلومات الحربية التي يُخشى على العامة أن يعرفوها. رجع محمد بخفي حنين.

ولم يكن الأمر بمستغرب فقد استطاع أحمد بيه الدمياطي بصِلاته المتعدده، وعلاقاته مع الكبار من مديري إدارات السجون أن ينقلَه إلى زنزانة أقرب ما تكون بفندق، وأن ينقله بعيدا عن سجن المركز وفي مكان بعيد عن سامي شعلان ومناط مسؤلياته، وكأنه يقول له: إن كنت قد استطعت أن تخضعه للسجن، فلأجعلن سجنه جنة لا جحيما وأرني ماذا ستفعل؟ ولم يكن الأمر ليخفى على سامي شعلان، فلقد كان يعرف

الأمر جيدا بل يتوقعه. ولما فشل محمد في العثور على مكان حسونة، ذهب مضطرا لزيارة خاله وآهي تكون زيارة بجميلة وخلاص. وكم كانت دهشته قوية حين تطرق الحديث مع خاله حول الموضوع، وإذا بخاله يخبره بخبر حسونه وسجنه الجديد.

زادت حيرة محمد على حيرة، من أين لخاله أن يعلم بالأمر، ولكنه لم يشأ أن يسأله عن مصدر علمه، فاكتفى فقط بمعرفة مقر حسونة الجديد، ثم ودعه بعد جلسه ليست بالطويلة قافلا إلى القرية.

(٤٤)

توقع الشيخ سعيد أن يكون محمد قد خرج مسرعا من المسجد فجرا إلى الورشة، فتبعه بعد أن ختم الصلاة لكنه لم يجده، ولم يستطع أن يخمن أين ذهب، فرجع إلى البيت وبعد ساعة رجع إلى الورشة بعد أن كان برهومة قد فتحها، ثم جالس برهومة وسيد في انتظار عودة محمد من المركز.

برهومة (يوجه حديثه للشيخ سعيد) محمد اتغير اليومين دول، معدش عاوز يكلم حد، وكل كلامه شد في شد.

الشيخ : دا حتى هرب مني النهاردة، وامبارح ومن يوم الموضوع ده وهو مش عاوز يجيب عيني في عينه وكلامه بالقطارة.

سيد : ماهو معذور، هو حاسس إننا خبينا عليه كل حاجه، وكان كما لو كان أطرش في زفة.

برهومة : ودا نصلَّحه ازاي؟ دا الموضوع باين عليه مشعشع في نافوخه، ومحمد لما يقفل مستحيل حد يفتحه إلا لما يروق لوحده.

الشيخ : المشكلة مش في محمد دلوقت، محمد موضوعه سهل وبكرة يتحل.

برهومة : أُمال المشكلة فين؟

الشيخ: انت ناسي فريد، فريد حس إنه انجرح، ولما راجل من رجالته يقع تبقى ضربة في الصميم، وفريد مش من النوع اللي يعدي الأمور كده بالساهل.

سيد : يعني قصدك؟

الشيخ (وقد خفَّض من صوته): الخوف إن اللي حصل للشيخ حسن زمان يحصل لمحمد ابنه النهاردة (ويكون الفاعل في الحالتين واحد؛ قالها بصوت مهموس).

برهومة وسيد (في نفس واحد) يا نهار أبوه اسود، واحنا حنسيبه كده، دي بقى لا فيها اقعد ولا استنى، لا تقولي حكومة ولا يحزنون، دنا اقطع رقبته ورقبة اللي خلِّفوه كمان، دنا اتغدى بيه قبل ما يتعشى بمحمد أخويا.

الشيخ سعيد: علشان كده لازم ناخد بالنا من محمد، ونحرسه تمام لحسن تيجي الفاس في الراس، وبعدين نقول يا ريت اللي جرى ما كان.

(٤٥)

علم فريد بخبر زيارة محمد لحسونة في المركز، فقد كانت له عيونه التي تأتيه بالأخبار، وبقدر ما كان حزن فريد أن أوقع برَجُلِه حسونه، إلا أنه سَعِدَ بذلك بعض السعادة، فقد حزم في داخله الأمر الَذي تردد طويلا في اتخاذ قرارا بشأنه، وهو الإنتقام من محمد الذي كان السبب - في نظره - ليس فقط في فَقْدِ ابنته إنصاف بل أيضا في دخول حسونه السجن، فضلا عن كونه ابن عدوه القديم الشيخ حسن. لذا بيَّت فريد شرا بقتله كما قُتل أبوه، لم يكن الأمر يحتاج منه إلى كثير تفكير، بل صار الأمر يتعلق فقط بطريقه التنفيذ ووقته.

جلس فريد مع نخبه من رجاله ودخان الحشيش والشيشة يملآن المكان.

سعدون : الحاج فريد بسم الله ما شاء الله، بيشد في الجوزة زي ما يكون شاب من شباب اليومين دول.

محسَّب : يا عم امسك الخشب.

فريد : هو شباب اليومين دول فيهم نَفَسْ دا الواحد فيهم عامل أبو عرام وفاتح صدره في وش الريح وهو ما يقدرش ياخد نفسين على بعض، تنفخه بريقك يقع، وتشخط فيه شخطة رُكَبُه تتسيب من بعضها.

سعدون : دول يا معلم اللي ملهمش في الكيف، وسيجارة بانجو واحدة تخلي التخين منهم ينخ زي الجمل.

فريد : يا سلام آهو أنا بقالي أربعين سنة وأنا متكيف ولا عمري كحيت مرة ولا رحت لدكتور.

محسَّب : الدهن في العتاقي يا معلم، وهو المعلمين برده زي صبيانهم!

سعدون : قصدك إيه علشان ما أنا بكح شويه، طيب وإيه يعنى دا الصحة حديد والحمد لله.

محسَّب: هو الدخان لوحده، لو كان ع الحشيش كانت بقت سهلة، والأربع نسوان اللي في البيت دول، الله يكون في عونك عليهم يا عم.

اغتاظ سعدون من كلام محسب واحمر وجهه، وفارت الدماء في عروقه وقام واقفا، يعني انت عاوز إيه بالظبط ؟

فريد وقد تدخل في الموضوع : إيه يا سعدون الراجل بيحبك وعاوز مصلحتك.

سعدون : وهو ماله بحريمي، أنا وانت عرفين الفولة ولا نفسر ونقول (يشير إلى أن محسب عقيم ولم تعمر معه زوجه من أجل الولد فقام بتطليقهن جميعا، ويحصل على نزواته بطريق المعاشرة الحرام).

فريد : أدي جزاء اللي يفتح لكم قلبه ويتكلم معاكم، بطلوا كلام بقى وتعالوا نتكلم في الشغل، عملتو اللي قلت لكم عليه.

محسب : كله تمام، الكمين جاهز فاضل بس الفار يقع في المصيدة.

سعدون : ومع أول سفرية له للمركز تكون آخر سفرية له، وبعدها ياخد ختم المغادرة.

فريد : أي غلطة أنا مش حسمح بيها، وانتو عارفين أنا لما بزعل من حد بعمل فيه إيه.

الإثنين (في نفس واحد) : عيب يا معلم دا حنا تربية إيدك.

كانت خطة فريد أن يراقب محمد جيدا ومع أول سفر له للمركز، يجره بحيلة ما إلى طريق الزراعية القديم عند ساقية الشيخ حسن ويقتل في نفس المكان الذي قتل فيه أبوه ومن بعدُ ماتت فيه إنصاف. وبهذه الحيلة يسكن غضب فريد ويطمئن قلبه بموت الولد بمثل ما قد مات أبوه.

(٤٦)

انصرف سعدون ومحسب بعد ساعة متأخرة من الليل، وبقى فريد وحده، قام من فوره يتحسس طريقه إلى حجرته، وفي الحقيقة لم يكن فريد مبالغا أن قال لرجاله أنه لم يشتكى مرة واحدة في حياته، وأنه حتى لم يصب مرة بالبرد، ورغم أنه يشرب ويسكر منذ سنوات إلا أنه لم تحدث مرة أن تعب فيها، كانت تساعده بنيته الجسدية القوية، واهتمامه جيدا بمطعمه ومشربه.

كان فريد يسكن وحده في فيلته - بعد زواج ابنته من أحمد بيه الدمياطي - وليس معه غير شهدي البواب، ومنيرة الخادمة والطاهية؛ كانت لمنيرة حجرة أسفل السلم مباشرة تبيت فيها، وأحيانا كانت تبيت مع ابنته بشرى في حجرتها خلسة منه قبل أن تتزوج إذ أنها كانت تحب منيرة حبا جما وتبادلها هي الأخرى حبا بحب، فلما تزوجت الفتاة استأذنته في أن تعاود بيتها كل ليلة بعد الإنتهاء من العمل فأذن لها.

وما أن ألقى فريد بجسده الثمل على فراشه الوثير، إلا وهجم النوم علي عينيه فما أيقظه بعد قليل إلا ألم شديد في صدره لا يستطيع تحمله، قام يجر رجليه، ويلعن حظه ويشتكى صاحبيه الذين كانا يشرب معهما منذ قليل: ولاد الهرمة دول، بَيِّنُهُمْ حسدوني، ولا أنا اللي قرِّيت على نفسي، دنا عمري ما اشتكيت أبدا، آه يا ولاد الكلب يا حسودية. أخذ

فريد يعول كثيرا من الألم الذي أصابه بسبب عينيّ هذين الرجلين، لذا قام وأحضر عودا من البخور وأخذ يتلو بعضا من التمتمات التي كان يسمعها في صغره من جدته ظنا منه أنها ستقيه شر الحسد، وبعد وقت غير قليل بدأ الألم يذهب تدريجيا، ذهب بالكلية عقب انتهائه من تلاوة تلك النصوص المشفرة وذهاب دخان البخور مع نسمات الفجر، فدفعه هذا للتيقن بصحه تفسيره، وبأن الأمر لم يكن سوى الحسد. ولكن الألم عاوده في اليوم التالي من العصر أشد من سابقه فقرر أن يذهب في اليوم التالي لزيارة نسيبه واستشارته في مدى جدوى ذهابه لطبيب من عدمه.

(٤٧)

كانت فاطمة على علم بمجريات الأحداث من حولها بداية من حرق الورشة حتى الإيقاع بحسونة، ولم تتوقف عند معايشة الأحداث فحسب، بل كانت دوما تتسائل عما سيحمله المستقبل من أحداث، كانت تؤمن بأنه يبنبغي للإنسان أن يستعد للإحداث قبل أن تفاجئه، وأن يعمل للزمن قبل مَقْدِمه. كان حبها لمحمد يدفعها دوما للتقصي عن أخباره من أي مصدر، ومعرفة الأحداث من أي طريق. كانت فطنة ذكية، وكان من ذكائها أنها أخبرت أباها بأن محمدا ربما يكون قد ذهب لزيارة حسونة في سجنة أول أمس حينما انصرف من مسجده مبكرا، وكان من رأيها ألا يخفى أبوها عن محمد شيء فإن الضرر الواقع عليه من إخفاء الأحداث عنه، ربما يكن أكبر من الضرر الواقع لو أخبرناه بها، خاصة أن محمدا يتسم بالعقلانية والتوازن. وكم لام الشيخ سعيد نفسه بعدُ إذ أحس بجودة رأي ابنته، فجاءها يسألها عما يفعل إذ وقعت الطوبة في المعطوبة، وكان نتيجة ما جرى أن انصرف محمد عنه وعن أصدقائه لا يلقى لهم بالا. ولكنها أشارت عليه برأي رأى بعد أنه الصواب.. أشارت عليه أن يقوم الشيخ سعيد ومعه ً برهومة وسيد بزيارة محمد في بيته لتناول طعام الغداء معه، وتصبح هذه الزيارة وكأنها استرضاءً لمحمد وتطييباً لخاطره، هذا بالإضافة إلى أنها كانت تخفى في

نفسها من وراء هذه الزيارة شيئا آخر: هو فتح قنوات الإتصال المغلقة بين أبيها والست عنايات، والتي بات الأمر ممهدا لإتمامها خاصة بعد موقف الشيخ سعيد مساندةً لمحمد في حرق الورشة واعادة بنائها من جديد وكذلك أمر حسونة. كانت فاطمة تحمل في داخلها هما قديما هو هم نفور والدته من الشيخ سعيد نتيجة للتاريخ القديم، من أجل هذا كانت تقاتل من أجل عودة الروح بين الأسرتين، فاستطاعت أن تكسب وداد أمينه أخته وأصبحتا على صلة وطيدة، وعلاقة جيدة فما بقى في الطريق غير والدتها حماة المستقبل. لذا انتهزتها فرصة وألقت بالفكرة في خاطر أبيها الذي استحسنها ورأى الخير في اتمامها.

(٤٨)

كان من عادة محمد أن يقضي فترة القيلولة في بيته، يتناول الغداء مع والدته وأخته، ثم يعاود الذهاب للورشة عصرا فيظل بها حتى المساء.

رجع محمد من الورشة تاركا ابراهيم وسيد، وما هي إلا دقائق وإذ بالباب يُطرق، كان محمد في غرفته يتخفف من بعض ملابس الصيف بأخرى أكثر ملائمة للبيت، وبينما هو كذلك إذا بطرقات الباب. كانت أمه أقرب إلى الباب فاتجهت نحوه تنظر من الطارق. فتحت الباب فإذا بالشيخ سعيد أمامها: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا حاجة أم محمد.

– الشيخ سعيد !!

– قلت أنا وسيد وبرهومة نروح نتغدى عند محمد، ونطمئن على عروستنا الصغيرة ونشوف أخباركم إيه.

برهومة : وعلشان ما تتخضيش وتكلفوا نفسكم، جبنا معانا غدانا كمان.

سيد : انت نسيت الحلو ولا إيه، يا عم قولها جبنا معانا الحلو كمان.

فاجأ برهومة وسيد بوجودهما الست أم محمد، فلم تستطع الرد

ببنت شفة، ولكنها أطرقت قليلا من هول المفاجأة، الشيخ سعيد عندنا في بيتنا!! وماهي إلا بُرْهة وإذ بمحمد يسمع صوت إبراهيم ويخرج على الفور، وإذ بهم أمامه ووالدته واجمة من هول المفاجأة، اتفضلوا اتفضلوا يا أهلا وسهلا خطوة عزيزة، يا مرحبا يا شيخ سعيد، اتفضل.

- مش لما والدتك تقول اتفضلوا، ياأخي ادخلوا البيوت من أبوابها.

- اتفضل اتفضل، يا أهلا يا فضيلة الشيخ، معلش أصل الزيارة مفاجئة.

برهومة : بس حلوة، أنا عارف إنها حلوة مش كدة يا أبو السِّيد.

سيد (وقد رفع الهريسة بيدة) ومسكرة وبطعم الهريسة كمان.

محمد : هو انتو جيبين غداكم معاكم يا عم ابراهيم، انت بتشتمنا ولا إيه يا راجل !

برهومة : دا الشيخ سعيد اللي صمم، أنا مليش دعوة يا عم.

الشيخ سعيد: دي هدية بسيطة يا محمد، عربون محبة، أنا بقى لي كام يوم مش عارف أشوفك قلت آجي أطمئن عليك، وأهي فرصة نتغدى سوا ونطمئن على عروستنا الصغيرة.

الست عنايات: فيك الخير يا شيخ سعيد، وإن جت متأخرة حبتين.

الشيخ : كل شيء بأوان، وكل وقت وله أدان يا ام محمد.

الست عنايات : من كام سنة وانت ما زرتناش يا سِيد البلد ؟

الشيخ : من يوم ما فرق بينا ولاد الحرام.

عنايات (تحسب أنه يشير إلى المرة التي جاء يخطبها فيها، ففهمت المعنى على غير مضمونه) والله ما كانوا ولاد حرام ولا حاجة، بس انت اللي باين عليك نسيت التاريخ شوية.

الشيخ (يُصحح لها ما في قصده) اللي يفرق ما بين الحبايب، ويمد إيده على ولاد الحلال، ويغدر بأهل الصلاح مش يبقى ابن حرام وبس، دا هو والحرام مولودين من رحم واحدة.

محمد (وقد رأى الموضوع سخن بينهم وتجاوز حدود المسموح الذي يجب أن يعلمه ابراهيم وسيد) : انتو باين عليكم حتجيبو التاريخ من قديمه، أظن يا برهومة انت وسيد ملكمش في حصة التاريخ دي، يلا بينا يا رجالة نظبط ويّا أمينة حصة الطبيخ.

برهومة: يا سلام انت جيت على الوجيعة.

سيد : هو فيه ألذ من حصة الطبخ، يلا بينا.

لم تكن سعادة محمد بالزيارة تضاهيها سعادة؛ ليس من أجل أن يسترضيه الشيخ سعيد، ولكن من أجل أن يذوب جبل الثلج ما بين والدته والشيخ سعيد، كان يعلم أن الأمر يحتاج إلى وقت، وأن العتاب على الزمن الفائت يحتاج إلى مثابرة ونَفَسٍ طويل خاصة من الشيخ سعيد؛ وهو يملكه، من أجل هذا أراد أن يُخلِّي لهم المكان كي يفسح لهم الأمر كي يتراضوْ.

كانت أمينة الوحيدة التي لديها علم بالزيارة؛ أخبرتها فاطمة. من أجل هذا فقد لزمت مكانها ولم تبد أي دهشة للموضوع وبينما برهومة وسيد يفترشان الأرض في الصالة الواسعة في انتظار الطعام، كانت أمينة في المطبخ تداعب محمد في صوت خفيض، أيوا يا عم مين قدك النهاردة، الناس بيروحو يخطبو العروسة واحنا العريس عندنا هو اللي بيتخطب.

– يعنى إيه ؟

– اعمل نفسك مش فاهم، الشيخ سعيد جي يخطبك النهاردة لبنته، دي خطوبة رسمي يا عم، أما أمك لو تلين دماغها وتفرفش كده، كان يبقى الموضوع تمام.

– محمد (وقد سار على منوال حديثها) متخفيش الشيخ سعيد قدها وقدود.

أمينة (وقد أخت تضربة بالطبق الذي في يديها) أُمال عامل نفسك مش فاهم!

محمد : بسرعة بس أحسن الأكل يشيط.

أمينة : دا لازم يستوي على نار هادية، سيبه برحته يِحْلَوْ طعمه.

انتهى محمد من وضع الطعام في مكانه المعد، ونادى على والدته والشيخ وسعيد، وحلقوا كلهم حوله ثم بدأ الشيخ سعيد بعد البسملة وهم خلفه يتبادلون الضحكات والدعابات تشاركهم الست عنايات

مرة، وتغيب عنهم مرة وكأنها يتقاسم ذاكرتها تياران: أحدهما للماضي البعيد بكل ما فيه، والآخر للمستقبل بكل ما يحمله، فحين تتأمل صورة الماضي تغيب عنهم فما يُرجعها إلا صورة الحاضر بسماته وقفشاته. والشيخ في ذلك يتابع ويراقب ويعدل المسارات الخاطئة.

(٤٩)

ركب فريد مع نسيبه سيارته في طريقهما إلى الدكتور عمار محمود، أستاذ الصدر بطب القاهرة، وبعد الكشف وعمل الفحوصات اللازمة تبين أن الحاج فريد يعاني من وجود ورم كبير بالقفص الصدري خلف الرئة اليسرى ويكاد يلتصق الورم بالنخاج الشوكي للعمود الفقري، ولم يكن أمام الطبيب إلا خيار واحد لا سبيل سواه؛ وهو التدخل الجراحي والفوري لاستئصال هذا الورم وتحليل خلاياه لمعرفة ما إن كان سرطانا أم أنه ورم حميد، وذلك خشية أن يتضخم ويمتد إلى النخاع الشوكي أو تظهر له ثانويات أخرى ببقية الجسد، ومعنى أن يمتد الورم إلى النخاع الشوكي - حتى وإن كان حميدا - هو آلام فوق التحمل، ومن ثم وجب التعامل مع الموقف بجدية وسرعة فائقة.

كان الطبيب في حيرة من أمره، أيكتفي بإخبار صديقه أحمد بيه الدمياطي بالخبر تاركا له مسؤوليه إخبار حماه بالأمر، أم أنه من الحكمة إبلاغه، لذا انفرد الطبيب بالدمياطي وأخبره الخبر، واتفقا سويا على إبلاغه بطريقه ذكية دون الاصطدام بكبرياء فريد وتعنته.

الدكتور : انت من إمتى بتدخن يا حاج فريد ؟

فريد (متفاخرا) : وأنا لسه في بطن أمي ؟

الدكتور (وهو يبتسم) : دا انت قديم في المهنة يا حاج؟

فريد (وهو يضحك) : زي ما تقول كده يا دُك، أقدم م المش في زمانه.

الدكتور : أنا كنت متوقع كده.

فريد : متوقع إيه بالضبط، هي الحكاية فيها إيه يا دمياطي بيه؟ صحبك الدكتور يقصد إيه ؟

الدمياطي : يا سيدي، انت صحتك زي البمب، بس فيه عملية بسيطة كده، حتعملها وتطلع في يوم واحد.

فريد : إه ؛ عملية، عملية إيه يا أحمد بيه! آدي جزاء اللي يسمع كلام الدكاترة، أنا طول عمري ما اشتكيت من حاجة، أوقع الجدار ده بإيدي دلوقت، وتقول عملية، لا مؤاخذه يا دكتور الواحد غلطان إنه يسمع كلام الدكاتره، بقى شوية كحة لا راحوا ولا جم يخلوا الواحد يعمل عملية، أمال بقى لو شفتم الواد سعدون وهو بيكح حتعملوا إيه؟ أكيد حيروح ع الإنعاش علطول.

الدكتور (وقد نفذ صبره وقرر مصارحته) : اسمعنى يا حاج فريد، انت عندك ورم في الصدر، والورم دا أكيد من كثرة التدخين، ولازم الورم يستأصل بأقصى سرعة وإلا ستكون العواقب وخيمة، وأنا عارف دكتور جراحة قلب وصدر ممتاز ممكن يعمل العملية الليلة لو حبيت، وانت الحمد لله صحتك حلوة وبنيتك وتحليلاتك كلها كويسة، وممكن تعمل العملية من غير أي مضاعفات.

فريد : آدي انت قلت بعضمة لسانك، لما تحاليلي كويسة عاوز تعمل العملية ليه؟ فهمني!! ولا هي تجارة وخلاص، يا عم خد اللي انت عوزه وابعد عني.

الدكتور (وقد استاء من كلامه، وبدا الغضب في عينيه وعلى وجهه) : لو كان الكلام ده من حد تاني يا أحمد بيه أنا كان ليّ تصرف تاني، ولكن علشان العِشرة اللي بينا أنا مش حتكلم، اتفضل حضرتك مع الحاج وسيبه وهو بكره اللي ح يترجاني يعمل العملية، ويا عالم يمكن تنفع ساعتها ولا لأ، بس الألم اللي ممكن يشوفه بدون عملية أبدا لا يقارن بالألم الحادث بعدها، سيبه الألم بكره يجيبه.

(٥٠)

انصرف فريد غاضبا من الدكتور تاركا نسيبه الدمياطي عند مدخل العمارة دون أن يودعه بكلمه، ثم ركب تاكسيا قاصدا المحطة في طريق العودة للقرية. انصرف فريد ولا يشك لحظة في أن كلام الطبيب خرافات لا حقيقة فيها، ودجلٌ لا أصل له. أنا اللي غلطان كان إيه اللي خلاني أكشف وأروح لدكتور، كانت حبتين مسكن قامت بالموضوع، بقى دا معقول عمري في حياتي ما أكشف وفي المرة الوحيدة اللي أكشف فيهل عند دكتور يقول ورم ! ياخي ورم في نفوخه هو واللي جايبينه، يا عم سيبك من كلام الدكاتره وروح خدلك كرسيين معسل يفوقوك، منه لله البعيد عكَّر دماغي، وأنا دماغي اليومين دول لازم يكون صاحي كويس. ونسيبي بدل ما يقف جنبي، هو كمان يقلب دماغي ويشيلني الهموم، مش كفاية عليّ الشيخ سعيد وابن الشيخ حسن، وولاد الكلب اللي طلعوا في المقدّر دول، على العموم معلش سحابة صيف وكلها يومين والضحية تاخد جزائها وتبقى فرحتك يا فريد ما تتعوضش، يومين اتنين وهما يومين بعيد !!

(٥١)

كان سعدون على علاقة بمحمد، وقد قام في غير مرة بفتح أبواب جديدة للرزق خاصة من طرف أهل زوجاته؛ حيث أنه متزوج من أربعة نساء اثنتان منهما من خارج القرية، وفي كثير مرات كان يرتب له لقاءات عمل لمن يريدون الزواج كي يقوم محمد بتجهيز العفش اللازم لهم، وكان سعدون يأبى أن يحصل على عمولة ويراها خدمة للطرفين، ولم يكن محمد يعلم عن علاقته بالحاج فريد شيئا، وكان أحيانا يصطحبه كلما زار من القرى المجاورة أحدا لصلاته وقراباته بالكثير من أهلها.

كانت خطة سعدون للإيقاع بمحمد هي أن يقوما سويا- كعادتهما - بتوصيل العفش لأصحابه من القرية المجاوره وفي رحلة العودة يجره سعدون ومحسب - السائق - إلى طريق الساقية ثم يقومان بالغدر به حيث يقوم أحدهما بضربه فوق رأسه، ثم الزج به إلى قعر الساقية، وذلك بعد أن رتب سعدون مع أصهاره الشهادة بأنه قضى الليلة عندهم، وترك محمد لمغادرة القرية مع سائق لم يره من قبل.

(٥٢)

كان العمل في طلبية كفر الساحل يسير على قدم وساق، ابراهيم وسيد وبقية العمال يعملون بجد، ومحمد يتولى الإشراف عليهم واستنهاض عزائمهم والتسرية عنهم.

برهومة (يوجه حديثه لمحمد): باين زيارة امبارح جابت نتيجة، يا بختك يا عم مين قدك النهاردة، الفرحة بطِّل من وشك.

سيد : فاضل له زلطة ويخش القفص، أمه وحماه.. ما شاء الله زي السمنة ع العسل، وبكره يبقى مع السمنة والعسل شربات كمان واهيص أنا، يا سلام دا يبقى حتة فرح ما يتعوضش، ولا حتى ييجي جنب فرح المعلم فريد حاجة.

برهومة : عيب عليك يا أخي، بقى تجيب فرح الناس الكُمَّل اللي زي محمد والشيخ سعيد جنب أهل الفسق والفجور دول!! الله يخيبك راجل.

محمد : باين عليكم ما صدقتم، يلا بقى نسيب الشغل ونقعد نحكي حواديت

برهومة : بزمتك يا شيخ مش أحلى حدوته في العمر.

سيد : وفي انتظارها من سنين.

محمد (وقد أخذ نفسا عميقا) دا لسه ما جاش أوانه، دا لسه شويه.

برهومة : ولسه ليه ؟

محمد (وقد أخذ لفة في المكان) : كان فيه أمور لازم أخلص منها الأول واعرف أولها من آخرها، علشان يهدا بالي، ويستريح سرَّي.

برهومة (وقد حاول الخروج من الموضوع بلطافه) انت تخش دنيا الأول، وبعدين نشوف أي حاجة تاني، يا بختك ياعم، هو حد يلاقي جوازة بالشكل ده وما يتقدمش حالا، ياما نفسي ألاقي عروسة بنت ناس كده.

سيد : وأنا لقيت لك العروسة ؟

برهومة (وقد تحمس للموقف) : مين ؟

سيد : البنت سنية العمشة، بنت عمك رمضان أبو العيون (قالها ثم انفجر هو ومحمد في الضحك).

برهومة : بقى كده يا عم سيد، بقيت بتغلط فيّ، آدي جزاء اللي يفوت للعيال، صحيح صدق اللي قال " سكتناله دخل بحماره ".

محمد : دا مش حمار، دا طلع حمار أعمش وبجوز عيون، إزاي ما تعرف !!

برهومة : بقى كده، طيب أنا سايب لكم المكان وماشي، وابقوا

كملوا الطلبية لوحدكم.

محمد (وسيد وقدا ذهبا خلفه لاسترضائه) : لا يا عم أرجوك مش وقت زعل، نخلص الشغل أولا وبعدين اللي انت عاوزه تحت أمر سيادتك.

برهومة : علشان خاطر الشغل بس، انتو عارفين لو مكنش حيتسلم يوم الجمعة ما كنت ولا حتى سألت فيكم.

(٥٣)

عاد فريد من رحلة القاهرة في القائلة من ظهر نفس اليوم، دخل غرفته يستريح قليلا من عناء السفر؛ وكانت عادته النوم في فترة القيلولة. وبعد ساعة أحس ببعض الألم فاستيقظ مستاء، هرع كي يتجرع بعضا من حبات الإسبرين، ثم بعض دقائق عاوده النوم. وفي المساء عاوده الألم مرات وفي كل مرة تطول مدته ويشتد ألمه. ولما كان الليل؛ لم يستطع أن ينم دقيقه واحدة، أخذ يتمرغ في السرير، ويتقلب على الأرض وما يخفت له ألم.. حبات الإسبرين التي كانت تُذهب ألمه فيما مضى لا تفعل شيء، حتى المسكنات التي جلبها من العيادة لا تسمن ولا تغني من جوع. اتصل بنسيبه أحمد بيه الدمياطي في جنح الليل يستنجد به، فما كان منه إلا أن اتصل بالطبيب الذي وصف له حقنات مخدرة تسكن أليم توجعه بعث بها إليه الدمياطي في جنح الليل مع سائقه الخاص، الذي وصل إليه مع الفجر ووجده في استقباله في مدخل الفيلا وهو يتقطع من الألم. كانت الساعات تسرع به، والألم يمزقه، ويكاد الجنون أن يصرعه. لم يكد يصل إليه السائق بالدواء إلا وأسرع واحتقن به، فما استطاع جسمه المخدَّر أن يصل القصر بل دخل حجرة البواب وألقى بنفسه على سريره ثم راح يغط في نوم عميق استيقظ منه في العاشرة من صباح اليوم التالي، وما أيقظه إلا الألم أيضا.

أخذ يتساءل: ما الذي يحدث ؟ هل هو سحر أم أنه مرض حقيقي؟ هل هو الحسد أم أنه الورم؟ إن الألم لا يُحتمل، وإن الصبر بدأ ينفذ، وإن العقل كاد ينفجر، وحين تجيء نوبة الألم يصحبها تنميل في الساقين، لا تقويان معه على السير. ما الذي يخبئ لك الزمن يابو الرجال، بدأ يتذكر قول الطبيب " بكره الألم يجيبه "، وبدأ يوقن بأنه لا سبيل إلا بإجراء العملية، لذا فقد اتصل بالدمياطي الذي اتصل بدوره بالطبيب المعالج، والذي كان يرتب الأمر مع طبيب التخدير وجراح القلب والصدر. كان عليه أن يغادر في الصباح الباكر متوجها إلى القاهرة. كان كل الذي يشغل ذهنه هو كيف ستمر عليه هذه الليلة، إن الألم أخذ الآن يرتبط بالنَّفَسْ، فمع كل شهيق يأخذه يتضاعف الألم ويزداد، ومع الزفير أشد. اتصل بسعدون ومحسب كي يقضيان معه الليلة فتخفف صحبتهما بعضا من آلام المرض والوحدة. أمضيا الليل بطوله معه يحاولان طمئنته حينا، وحينا يقومان بحقنه بالمسكنات التي يذهب معها في إغفائه قليله ثم تعاوده الآلام من جديد. ومع نسمات الفجر ركبا معه السيارة، محسب يقود وسعدون يجلس بجواره. وكان عليهم أن يمروا في طريقهم بالجامع الكبير الذي تصادف مرور الشيخ سعيد ذاهبا لصلاة الفجر. راعه سرعة السائق الذي يأتي من بعيد وتعجبه عمن يكون راكبا سيارته في هذا الوقت فاعترض السيارة يريد أن يستوضح الأمر. فما كان من فريد إلا أن أمر محسب بالوقوف بإزائه.

فريد : السلام عليكم يا شيخ سعيد.

الشيخ: حاج فريد! وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، خير يا حاج، مش عوايدك نشوفك الساعة دي م الفجر. انت جي تصلي الفجر معانا في الجامع الكبير ولا إيه ؟

فريد (وقد بدا عليه المرض) : كان نفسي، بس للأسف المشوار طويل ولازم نوصل في الموعد المطلوب.

الشيخ : أيوا يا سيدي كل واحد وله معاد، ويا بختك انك عرفت معادك، ياريت كل واحد فينا يعرف معاده.

فريد : كله مقدر ومكتوب.

الشيخ : صدقت، ولا يُغني حذر عن قدر، وصدق القائل:

ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماء

فريد : ادعو الله لي وانت بتصلي الفجر.

الشيخ : أنا طول عمري بدعي لك، وعمري ما نسيتك أبدا، عوزني أنساك من الدعاء النهاردة، دا حتى يبقى عيب.

فريد : يعني انت كنت طول عمرك بتدعي! أنا عرفت دلوقت إيه سبب اللي أنا فيه دلوقت.

الشيخ : وإيه اللي انت فيه؟

فريد : دعوة من دعواتك يا مولانا.

الشيخ : يعني دي دعوة واحدة، أُمال لو استجاب في الباقي كان

عمل إيه؟!

فريد : يمكن استجاب لك في واحدة، واستجاب ليّ أنا في الباقي.

الشيخ : ع العموم الكل يدعي، وربنا لا يستجيب إلا من المخلصين.

فريد (وقد أمر السائق بالمضي قدما) : بكرة نتقابل يا عم الشيخ سعيد.

الشيخ : يا عالم مين فينا ممكن يعيش لبكرة.

انطلق فريد - الذي تشائم أيما تشاؤم بمقابلة الشيخ سعيد – مع صاحبيه حتى وصلا المركز، فكان على سعدون النزول تاركا محسب لتوصيل سيده إلى القاهرة ثم العودة مرة ثانية إلى القرية لإتمام العملية التي اُتفق فيها مع المعلم فريد بشأن التخلص من محمد. فأراد سعدون قبل النزول التأكد من سيده : هل تُنفذ خطة الليلة؟ أم عليهما الإنتظار حتى يخرج فريد من العملية سالما ثم يعود لبيته حيث يقومان بالتنفيذ.

سأله سعدون ثم نظر إليه ينتظر الإجابة.

نظر فريد إليه نظرة طويلة، وكأنه يشاور نفسه: هل تُنفذ؟ أم تؤجل؟ فراوده شيطانه، بأنه أنسب موعد تنفذ فيه الخطة بينما هو غائب عن البلدة، ولن يشك فيه أحد على الإطلاق، فما كان منه إلا أنه أمر السائق بالمضي، ومع التحرك قال لسعدون كلمات معدودة: (نفذ، وبكرة أرجع لك).

(٥٤)

كان محمد قد استشار والدته في فكرة التقدم لخطبة فاطمة من أبيها، فما كان منها إلا أن وافقت بعد مناورة ومحاورة بسيطة بينها وبين محمد شاركت فيها أمينة، فقام محمد وأمينة بتقبيل يديها ورأسها وبادلتهما ذلك بالدعاء لهما بتحقيق السعادة ونيل البركة.

ولم يجد محمد أفضل من نسمات الفجر - ذلك الوقت المبارك الذي يعشقه ويحبه - فرصة كي يحادث الشيخ سعيد في التقدم لخِطبة دُرَّته المصونه، وزهرته الفياحة.. فاطمة.

سُر الشيخ سعيد بذلك الخبر سرورا عظيما أنساه ما كان من لقيا فريد قبل إخباره. فما كان من الشيخ سعيد، وقد خلا المسجد بهما، إلا أن وضع يده فوق رأسه ودعا له بالخير والعقبى الصالحة. ثم قال له : انت عارف يا محمد يا ابني: أنا كنت مستني اللحظة دي بفارغ الصبر، والحمد لله، أحمد الله تعالى أن أكرمني بنجل الشيخ حسن. انت عارف يا محمد لو مكنتش طلبت إيد فاطمة أنا كنت جوزتها لك رغما عنك؛ رغبة في النسب الطيب، والأصل الصالح. ربنا يا ابني يجعلك دائما خير خلف لخير سلف، ويبارك فيك وعليك.

محمد : إذا متى نقوم بالرسميات والذي منه.

الشيخ : في الوقت اللي تحبه وتريده يابني.

محمد : والله خير البر عاجله، أنا المفروض أسلم طلبية عفش النهاردة في كفر الساحل، وبكره إن شاء الله أجيب أمي وأمينة ونزوركم في البيت وآهو تكون شاورت فاطمة في الموضوع.

الشيخ (وقد تبسم وتهلل وجهه) : يعني انت مش عارف ردها ؟!

محمد (وقد تلعثم) : يا مولانا يقول صلى الله عليه وسلم:" لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن قيل: و كيف إذنها؟ قال: أن تسكت ".

الشيخ : اُستأمرت يا سِيدي والرد جاهز.

محمد: إذن لا ينقصنا إلا دعائكم، وعزومة سيد وبرهومة، حتى كمان علشان يجيبوا الشربات والذي منه.

الشيخ : ودول عليّ، سوف أذهب لإبلاغهم الليلة بنفسي.

(٥٥)

كان محمد منهمكا في العمل، ثلاثة من سيارات النقل يقمن بتحميل البضاعة التي سوف يقوم محمد بمرافقة سعدون بتوصيلها إلى كفر الساحل، ثم العودة مرة أخرى كما تعودا ذلك. قام محمد بالإشراف على ذلك بنفسه عصر ذلك اليوم، ثم قام بالركوب مرافقا لسعدون وبعض من حضروا لاستلام العفش، كان محمد يريد التبكير في الأمر بحيث يتسنى له العودة مبكرا لبيته مع العشاء كالعادة؛ إلا أن السيارات تأخر قدومها اليوم بدون مبرر، فبدلا من وصولها ظهرا لم تصل إلا العصر. تعذَّر سعدون عن ذلك التأخير بعلة كونه لم يجد السيارات التي يتعاملون معها، فما كان منه إلا أن استأجر عربيات من المركز لتقوم بالمهمة. قَبِل محمد عذره، ومع الإنتهاء من التحميل رافقهم محمد إلى كفر الساحَل مودعا سيد وبرهومة، وهو يعدهما بأن لهما عنده مفاجأة حين العودة.

(٥٦)

كان فريد يلبس الجلباب الأبيض، يستعد لدخول العملية التي سيجريها له اثنان من أكبر أطباء جراحة القلب والصدر في مصر، في مستشفى من أعرق المستشفيات. لم يكن حوله أحد؛ كانت ابنته وزوجها الدمياطي في الإستراحة وقد مُنعا من مرافقته. لم يكن عند فريد أدني شك من عودته صحيحا سالما من تلك العملية، كان نشاطه عاليا، يستنهض الأطباء بسرعة إجراء العملية.

قالت له الممرضة وهي تلاطفه : انت مش خايف.

قال لها : اللي يقتل لازم يكون قلبه حديد.

حَسبت أنها هستريا الخوف من المرض، فقالت وهي تجاريه في الكلام: وانت قتلت واحد ولا أكتر.

فريد : كتير كتير، بس واحد فيهم هو اللي دايما سيرته على بالي وعمري ما بنساه أبدا، دا حتى كان معايا دلوقت، من شويه كان بيكلمني وأكلمه، بس أنا حقولك سر: أنا قلت له: أنا راح أموتك تاني زي ما موتك في المرة الأولى، والمرة دي عُمْر ما حيبانلك أثر في الوجود.

الممرضة : ياه، دا قلبك باين عليه أبيض بشكل!! على العموم بعد شويه حنفتحه ونشوف شكله إيه، وإيه اللي فيه.

فريد : أيوا بس بسرعة وحياتك، افتحي الأبواب المقفولة دي، عاوز أشوف إيه اللي وراها

الممرضة : دلوقت رح تشوف كل حاجة.

(٥٧)

صلى الشيخ سعيد العشاء ثم توجه للورشة كي يخبر سيد وبرهومة بخبر خطبة محمد لفاطمة، ثم يطلب منهما العروج في الغد على المركز لإحضار بعض ما يلزم لهذه الليلة الطيبة.

الشيخ : السلام عليكم.. أهلا بالناس الطيبين.

برهومة : وعليكم السلام يا سيِّدنا.

سيد : يا مرحبا يا مرحبا.

برهومة : شكلك يا مولانا كده فرحان، لابس العباية الجديدة وواضع عطر، وحاجة كده ما نشوفها ألا في المناسبات.

الشيخ : وهو فيه مناسبة أفضل من دي يا برهوم.

سيد : ما تفرحنا معاك يا مولانا.

الشيخ : محمد طلب إيد فاطمة بنتي النهاردة.

سيد : هو لحق يروح كفر الساحل وييجي بالسرعة دي، ويطلبها منك.

الشيخ : لا هو طلبها مني النهاردة في الفجر.

برهومة : ألف ألف مبروك يا شيخ سعيد، وإن كنتُ آخر من يعلم.

سيد : وهو كان الراجل فاضي يقولك، ما انت شايف النهاردة كان شغل قد إيه، دا حتى الراجل لسه ما وصلش بيته.

الشيخ : يا سيدي دي عندي أنا، وبعدين ياخي لما محمد يبلغلك، ولا لما الشيخ سعيد هو اللي يقوم بالمهمة دي !!

برهومة : انت كده دايما يا مولانا بتعدي م المواقف الصعبة، إزاي ياخي متعرفش.

الشيخ : اللهم اجلعني خير مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

برهومة : وامتى إن شاء الله الفرح والذي منه.

الشيخ : آهو الذي منه ده بتاعك انت وسيد يا حلو، المطلوب منكم الذهاب بكره للبندر لإحضار بعض لوازم الليلة.

سيد : واحنا تحت أمرك، بكرة كل المطلوب يكون عندك في الموعد بالظبط.

برهومة (يوجه الكلام لسيد) لما ييجي سعدون والسواق اللي معاه متنساش تبيّت عليه بكره يطلع معانا، بدل ما يحصل زي اللي حصل النهاردة.

الشيخ (وقد رن جرس اسم سعدون في مسمعه) : سعدون مين؟

سيد : سعدون الحناوي، دا الراجل اللي كان الوسيط في طلبية

النهاردة لكفر الساحل.

الشيخ : وسواق مين اللي معاه؟

برهومة : كان معاه تلاتة كلهم أغراب؟

الشيخ : كان فيهم واحد أسمر، فيه حب الشباب في وشه، وشعره أكرت.

سيد : أيوا صح، انت عرفت منيين؟

انتفض الشيخ واقفا وقد بدا الذعر على وجهه، ألقى بالعباءة، ثم قام يجري نحو الباب.

سيد وبرهومة، في صوت واحد: فيه إيه يا مولانا ؟

الشيخ : دول رجالة فريد، الحقوا محمد قبل ما يقتلوه زي ما قتلوا الشيخ حسن.

(٥٨)

أنهى العمال تفريغ البضاعة ثم قام محمد بنصب ما يلزم نصبه من العفش تمهيدا للفرح المنتظر، ثم تسلم باقي حسابه وكان عليه أن يخوض رحلة العودة بمصاحبه سعدون الذي قام بتسريح السيارتين وخلَّف محسب وسيارته. ركب محمد بجوار السائق وسعدون بجوار الباب، ثم أخذا يطويان الطريق المظلم وصولا إلى المكان المنتظر وهو ساقية الشيخ حسن كي يُقتل فيها الإبن كما قُتل أبوه من قبل. وفي المكان المحدد استأذنهما سعدون في النزول للتبول متذرعا بالمغص الكلوي الشديد. لم يكن المكان غريبا على محمد، فقد زاره من قبل عشرات المرات، لم يكن يخشى المكان ولا الظلام؛ بل ربما وجدها فرصة كي تعاوده بعض الذكريات القديمة في هذه المكان، وبالفعل، ما إن نزل سعدون حتى تذكر محمد والده الذي مات أمامه في نفس المكان، أخذ محمد يقلب الصفحات التي طويت منذ لحظتها حتى الساعة، وما قطع عليه شريط الذكريات إلا صرخة سعدون التي شقت حجب الصمت والظلام، وإذا بمحمد يرى مع الصرخة شبح سعدون يسقط على الأرض، فانتفض من أحلامه يغيث الملهوف، فما هي إلا بُرهة وإذا به ماكثٌ بجواره يحاول أن يسنده ليحمله من على الأرض، وإذا بسعدون يمسك بمحمد إمساكا شديدا، ظن محمد في بداية الأمر

أنها إمساك الغريق يرجوا النجاة، أو أنها جذبة المتلهف يبغي السلامة. فإذا به بدلا من أن يستند إليه يعوِّقه. وبدلا من أن يرسل يديه يقبض عليهما بشده غير معهوده. ومن الخلف كان محسب يستعد، كان معه قضيب من حديد يعده لهذه اللحظه، أمسك به جيدا، ثم قام بضربه على رأسه ضربة شديدة، فإذا بها تحيد عن رأسه لتنال من ترقوته، صاح محمد بأعلى صوته.. لا، أبي. لن يقتلوك مرتين. أخذ محمد يقاومهم، ضربه محسب ضربة ثانية وثالثة، وفي كل مرة تنال من جسمه إلا أنها تخطئ رأسه، سالت الدماء منه، ومازال يقاومهم، حتى فلتت إحدى الضربات وإذا بها تصيب سعدون في رأسه فوقع مغشيا عليه، كانت مهمة مقاومة رجل واحد أسهل من مواجهة اثنين، سقط القضيب من السائق، ثم أخذا يتعاركان حتى وقعا على الأرض، يعلو أحدهما الآخر تارة ثم يقع، يدوران على التراب والطين كما يتدحرج الحجر من فوق الجبل، وما زالا كذلك حتى أصبحا على شفير بئر الساقية، وبعد مقاومة مضنية من محمد، وهجوم كاسح من محسب إذا بمحسب يقوم مسرعا ومحمد في حالة من الإعياء فيمسك بمسمار الساقية لينتهزها فرصة فيضربه وهو راقد على الأرض، وبينما يندفع نحوه في قوة إذ به يتعثر في حبل مربوط بالساقية فيسقط على الأرض فيدفعه محمد بقدميه ليسقط في بئرها.

وما هي إلا لحظات وإذا بالشيخ سعيد وبرهومة وسيد وشريف خال محمد ورئيس المباحث بسيارته وجنوده في المكان. قاموا على الفور بحمل جسدي محسب وسعدون المصابين وفي حالة فقدان للوعي، بينما

قام الشيخ سعيد والبقية بحمل محمد وهو غارق في دمائه إلى أقرب مستشفى.

(٥٩)

الغرفة هي الغرفة والسرير هو السرير. محمد يرقد على سريره وقد أغاثته يد القدر، وأسعفته يد الطبيب. ومن حوله محبوه: الشيخ سعيد وسيد وبرهومه وخاله الأستاذ شريف. وهنالك على سريرٍ مثله يرقد فريد وليس بجواره أحد.

محمد : كنت أحس بروحِ أبي في المكان، كان معي، رأيت يده تدفع عني الضربه، فسَلِم رأسي وكُسرت ذراعي.

فريد : احجبوه عني، أخرجوه من غرفتي، زجوا به خارج المكان، أدركوني قبل أن يقتلني، انظروا ها هو ذا، إنه ينزع جهاز التنفس من على فمي، ها هي يده تمتد نحوي.. آه آه.. أغيثوووني.

محمد : كان الصراع على أشده، والحرب يشتد ضرامها، أمسك الباطل سيفه، شد الباطل قوسه، أعد عدته وجنَّد جنوده، رفع رأسه وأطلق قذائفه، أدركوه أدركوه.. آه آه من يوقفه.

فريد : إنهم هناك، أقسم أني آراهم، تحت الراية واقفون، الشيخ حسن يتقدمهم، وسعيدٌ يرفع رايتهم، إنهم يمسكون السلاح، يتقدمون بلا خوف، ويزحفون نحو غايتهم في ثبات، وكأني أراهم يجزون رأس الباطل في قوة، ويصرعونه في يقين.

محمد : أشعر وكأن الملائك تحوطني وبأجنحتها تمسحني.

فريد : أبعدوا تلك الشياطين عني، إنها تضربني.. تنزع جلد وجهي.

محمد : أحس بأن صدري ينفسح شيئا فشيئا، وبأن نَفَسي يتشبع برياحين الدنيا رشفة رشفة، أشعر بأن روحي تعانق الفضاء، وَأن نَفْسي تمتزج مع فسحة الكون الرحيب.. وها قد خلعت قيودي بعد حين مَن المجاهدة، وخلعت ربقة الذل عني بعد طول معاناة، أشعر كما لو أنني طلقت الموت وأستعد لخوض الحياة من جديد.

فريد : إن صدري يضيق شيئا فشئيا، وإن نَفَسي يختنق لحظة بعد لحظة. إن قيود الدنيا تطوقني، وإن أثقال الجبال تَرَزح فوق كاهلي، آه إن روحي تنسحب من جسدي وكأنها ثياب تنزع من غصن شوك، وإن جسدي يتألم كما لو أن سكاكين الدنيا تمزقه قطعة قطعة.. إنه الموت بعد الحياة، وإنه القنوط بعد الأمل، وإنها شر خاتمة بعد حسن البداية.

(٦٠)

أفرعٌ من النور معلقة في كل مكان، باقات من الورود يمتلئ بها بيت الشيخ سعيد، فاطمة ترتدي ثياب العروس ومن حولها أمينة والست عنايات وجمعٌ من فتيات القرية يغنين ويضربن الدفوف. ومحمد جالس بذراعه المكسور وجلبابه الأنيق ورائحته العطرة ووجهه الباسم الناضر بين محبيه يتقدمهم الشيخ سعيد وقد حضرت القرية عن بكرة أبيها للمشاركة والتهنئة.

***

جمع غفير من الجنود يتقدمون في سرعة مذهلة، يحملون السلاح المدجج، ويلبسون الأقنعة الحديدية، يتقدمهم رئيس المباحث ومعهم وكيل النيابة سامي شعلان. التفوا حول سريره، أمسك واحد منهم يده، بينما قيد الأخرى أحدهم في السرير.

فريد : فيه إيه؟ انتو مين؟ وجايين ليه؟

شعلان : احنا عملك السيئ. ونهايتك المشئومة.

فريد : حتودوني على فين؟

شعلان : تآخد جزائك في جهنم الدنيا.

فريد : بتهمة إيه؟

شعلان : اللي يفلت من قضية موت الشيخ حسن، كان لازم يقع في قضية موت ابنه.

فريد : أنا لازم أجازيكم، لازم أحاسبكم، فين الدمياطي بيه؟

شعلان : سبقك على السجن، وانت رايح وراه.

فريد : يعني إيه؟

شعلان : يعني الظالم مهما عِلي يلازم في يوم ياخد جزاؤه. والحق مهما بان في يوم إنه ضعيف لازم تجيله لحظة يتنصر. الباطل دايما مهزوم والحق دايما غالب " وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ".

***

محمد ورفاقه يصلون فجر يوم زفافه مع الشيخ سعيد في المسجد الكبير، والشيخ يقرأ في خشوع: بسم الله الرحمن الرحيم " وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ".سورة هود